معالم في أصول الدعوة

تأليف

الدكتور/ محمد يســري

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

ح مجلة البيان ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

يسري، محمد

معالم في أصول الدعوة / محمد يسري، الرياض، ١٤٢٤هـ

٩٥ ص؛ ١٧× ٢٤

ردمك: ١ – ٢ – ٩٤٤٩ – ٩٩٦٠

١ ـ الدعوة الإسلامية.

أ ـ العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٤/٥٣٤٣

رقم الإيداع: ٥٣٤٣ / ١٤٢٤

ردمك: ١ ـ ٢ ـ ٩٤٤٩ ـ ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً، أما بعد:

فإن الدعوة إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ من أعظم القربات وأجل المهمات، جعلها الله ـ تعالىٰ ـ وظيفة أنبيائه، ومهمة أوليائه، وسبيل أصفيائه.

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾

[**يوسف**: ١٠٨].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ [**الأحزاب**: ٤٥ - ٤٦].

والدعوة إلىٰ الله قولاً أحسن الأقوال، والدعوة إلىٰ الله عملاً أحسن الأعمال، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [**فصلت**: ٣٣].

وأفضل الخلق بعد المرسلين الذين يقومون مقامهم بالدعوة والتذكير في أممهم، ويخلفونهم بالبشارة والنذارة والتبليغ في أقوامهم، يُصلحون من أمر الدين ما فسد، ويُحيون من معالم السنن ما اندثر، هم أولىٰ الناس بالنبيين، وأحرىٰ الورىٰ بدعاء إمام المصلحين ﷺ بنضارة الوجوه والفقه في الدين، أولئك الأقلّون عدداً، والأعظمون عند الله أجراً، فتح الله بهم قلوبًا غلفًا، وبصَّر الله بهم أعينًا عميًا، وأسمع الله بهم آذانًا صمًّا، يسوقون الحياة والأحياء إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ سوقًا رفيقًا، يوقظون نوازع الخير، ويزكون وازع التقوىٰ.

أولئك الدعاة إلىٰ الله، علىٰ بصيرة بالإسلام عقيدة وشريعة، علمًا وعملاً، دينًا ودولة، علىٰ بصيرة بالناس علىٰ تنوع أصنافهم، واختلاف أحوالهم، علىٰ بصيرة بالدعوة وأصولها، وطرائقها وأسبابها، ووسائلها ومعوقاتها.

يقيمون بنيان دعوتهم علىٰ أصول راسخة، ومنطلقات ثابتة، وملامح وسمات بيّنة، يهتدون بهدي الأنبياء في الدعوة عامة، ويقتفون أثر المصطفىٰ ﷺ وأصحابه خاصة، يحققون توحيدًا وإخلاصًا، وينشرون علمًا وفقهًا، ويتَّبعون أسلافًا وآثارًا، وعلىٰ أساس من ذلك كله يربّون جيلاً، ويقيمون معروفًا، ويهدمون منكرًا، ويجاهدون عدوًّا، ويجمعون الدين علمًا وعملاً.

وقد كان من شأن الدعاة في أول الأمر أن يتلقّوا علم الدعوة تأصيلاً وتنظيرًا مع عملها ممارسة وتطبيقًا، وذلك بالمشافهة للشيوخ تارة، وبالممارسة بحضرة الكبار ورعايتهم تارة أخرىٰ.

ولم تقم بالأسلاف حاجة إلىٰ إفراد علم الدعوة بتصنيف وتأليف، ثم تطاول العهد، واتصل - عن زمن السلف وهديهم - البعد، وانحسر سلطان الإسلام وتقلّصت دولته، وخلفت خلوف أضاعت الواجبات، واتبعت الشهوات، ووقعت في الشبهات، وأخلدوا إلىٰ السبات، فلم يستفيقوا إلا علىٰ استلاب ملكهم وتقويض خلافتهم.

وهبَّ المصلحون الغرباء، والرواد من الدعاة والعلماء، يحدون بالأمة من جديد، ويبعثون فيها روح التجديد، فكتب الفضلاء يشخّصون الداء ويصفون الدواء، ومسَّت الحاجة إلىٰ تدوين علم الدعوة تأصيلاً وتنظيرًا، كشفًا لما قد يحيط بأصول الدعوة من جهالة، وتوضيحًا لما قد يعتري مفهوماتها من غموض، وتصحيحًا لما قد يطرأ علىٰ مناهجها ووسائلها من اضطراب.

وما من شك أن من حق الناس علىٰ الدعاة في كل عصر ومصر أن يبينوا لهم أصول دعوتهم، وأن يجلّوا لهم عظيم غايتهم، وأن يوضحوا لهم نبيل أهدافهم

وصحيح وسائلهم، كل ذلك ببيان يفهمه العامة قبل الخاصة، ويدركه القروي قبل الحضري، إذ بقدر وضوح الغايات، ونبل الأهداف، وصحة الأصول، ومشروعية الوسائل؛ تتحقق الاستجابة، ويُنتفع بالذكرىٰ.

ولقد قامت الجهود العلمية المعاصرة علىٰ قدم وساق تخدم قضية الدعوة، ولا جرم أن كان علم الدعوة في العصر الحديث في أوله قاصراً محدوداً، غلبت فيه العاطفة علىٰ التقعيد، ثم هو يوشك أن تجتمع أوصاله وتأتلف أجزاؤه، ويقوىٰ فيه جانب التأصيل، ولقد خرجت كتب تحمل اسم «أصول الدعوة»[١]، وأخرىٰ تحمل اسم «فقه الدعوة»[٢]، وصُنّفت مداخل لعلم الدعوة أيضًا[٣]، ووُجهت رسائل للدعاة[٤]، وغير ذلك من الرسائل والبحوث المفيدة.

وفي هذه الورقات محاولة جديدة - تبني علىٰ ما سبقها وتضيف - لتحديد وتجريد أهم تلك الأصول والمنطلقات التي قام عليها منهج أهل السنة والجماعة في الدعوة والإصلاح، وذلك بالنظر في تراث الدعوة، واقتباس كلام أئمة الدعاة قديمًا وحديثًا حينًا، وبالنص عليه أحيانًا أخرىٰ، من غير كثير شرح وتطويل، ولا تفصيل في ذكر الدليل.

وكان من غرض تسويدها إيجاد أرضية مشتركة بهذه الأصول، منها ينطلق الدعاة في دعوتهم، ويترابطون في مسيرتهم، فيغدو اتفاقهم علىٰ هذه الأصول مدد قوتهم، وعنصر ائتلافهم الممهد لتعاونهم علىٰ تحقيق أهداف الأمة، والتي من أولها وأولاها الاعتصام بحبل الله، والاجتماع علىٰ الدعوة إلىٰ الله، إخوانًا

(١) انظر علىٰ سبيل المثال: «أصول الدعوة»، لفضيلة الدكتور/ عبد الكريم زيدان.
(٢) انظر علىٰ سبيل المثال: «فقه الدعوة إلىٰ الله»، لفضيلة الدكتور/ علي عبد الحليم محمود.
(٣) انظر علىٰ سبيل المثال: «المدخل إلىٰ علم الدعوة»، لفضيلة الدكتور/ محمد أبو الفتح البيانوني، و«مدخل إلىٰ علم الدعوة»، لفضيلة الدكتور/ عبد الرب نواب الدين.
(٤) انظر علىٰ سبيل المثال: «رسالة إلىٰ الدعاة»، لفضيلة العلامة الشيخ/ ابن عثيمين، وأخرىٰ مثلها لسماحة العلامة الشيخ/ ابن باز - عليهما رحمة الله -.

مؤتلفين، لا أوزاعاً متخالفين.

وحريٌّ بالبيان أن هذه الأصول لا تعبّر عن توجه بعينه، ولا تنظر لمدرسة دعوية بخصوصها، كما لا تعرض عن حق وحكمة لغرض شخصي، أو انتماء حزبي؛ بل هي لأهل الإسلام عامة، ولأرباب الدعوة خاصة.

والاجتماع على هذه الأصول والسمات من شأنه أن يضبط الأولويات في مسيرة الدعوات، وأن ينشئ معياراً للرشد في الممارسة والتطبيقات، وأن يقيم علاقة راشدة بين الدعاة، سواء كانوا أفراداً أم جماعات.

وأخيراً؛ فإنها محاولة لإسداء النصح الواجب للأئمة والهداة من كل اتجاه، في وقت دعت فيه الضرورة الشرعية إلى التماسك والائتلاف، والتعاون لتحقيق الأهداف، دفعاً عن ثوابت الأمة، وحفظاً لقواعد الملة.

والله ـ تعالى ـ من وراء القصد، وهو يهدي السبيل، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله وسلم على خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله محمد يسري

القاهرة

غرة المحرم عام ١٤٢٤هـ

الأصل الأول
التوحيد الخالص والاعتقاد الصحيح

إن توحيد الله ـ تعالىٰ ـ وإفراده بالعبادة هو غاية خلق العالمين، وهو أصل دعوة الرسل أجمعين، وهو أول ما يُخاطب به الناس من أمور الدين، وهو سبب العصمة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وهو الشرط لصحة سائر الطاعات وقبولها.

أما أنه غاية خلق العالمين؛ فلقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [**الذاريات**: ٥٦].

وأما أنه دعوة الرسل أجمعين؛ فلقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [**الأنبياء**: ٢٥]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [**النحل**: ٣٦]، فالتوحيد حق الله علىٰ العبيد.

وأما أنه أول ما يُخاطب به الناس من أمور الدين؛ فلقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [**آل عمران**: ٦٤]، ولقوله ﷺ لمعاذ ـ رضي الله عنه ـ حين أرسله إلىٰ اليمن: «يا معاذ، إنك تقدم علىٰ قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم» الحديث[1].

وأما أنه سبب العصمة في الدنيا؛ فلأن الإقرار بالتوحيد يعصم الدم والمال، ويُثبت عقد الإسلام، كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (١٤٢٥)، ومسلم، رقم (١٩).

إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله؛ عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»(١).

وأما أنه سبب النجاة في الآخرة؛ فلقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ولقوله ﷺ حين سُئل: وما الموجبتان؟ فقال: «مَنْ مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومَنْ مات يشرك بالله شيئًا دخل النار»(٢).

وأما أنه الشرط لصحة سائر العبادات وقبولها؛ فلقوله ـ تعالىٰ ـ في حق المؤمنين العاملين: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، ولقوله ـ جل وعلا ـ عن أعمال الكافرين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، فالشرك محبط لجميع الطاعات، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فكما لا تُقبل صلاة بغير وضوء؛ لا تُقبل عبادة بغير توحيد.

فالتوحيد هو أول ما يتعلمه الداعية، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وأوجب ما يدعو الناس إليه، قال ـ تعالىٰ ـ على لسان أنبيائه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فهو عمدة الأصول التي ينطلق منها الداعية في دعوته إلىٰ الله، وخلافته لرسول الله ﷺ خاصة، ولرسل الله عامة، وهو أصل كل صلاح في هذه الحياة، كما أن الشرك ومعصية الرسول ﷺ أصل كل فساد، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر»(٣).

ومما يؤكد أهمية الدعوة إلىٰ التوحيد أن الخلل الواقع في جانبه أعظم خطرًا،

(١) أخرجه البخاري، رقم (١٤٠٠، ٦٩٢٤، ٧٢٨٥)، ومسلم، رقم (٢٠، ٢١)، واللفظ لمسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، رقم (٩٣)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، (١٨/ ١٦٣).

وكذا فإن فساد العقيدة سبب مباشر في حدوث الاختلاف والتفرق والتنازع بين طوائف الأمة، فتحقيق كلمة التوحيد هو السبيل لوحدة الكلمة.

فالداعية الحق يجعل الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والتوحيد الخالص أولاً ودائمًا، وقبل كل شيء، ومع كل شيء، يدل على ذلك:

- أن الإيمان عند الإطلاق في الكتاب والسنة لا يقتصر على اعتقاد القلب؛ بل يشمل إقرار اللسان وعمل الأركان، كما هو اتفاق أهل السنة والجماعة.

- ارتباط الأحكام والأمر والنهي بالاعتقاد بذكر الوعد والوعيد، وختم آيات الأحكام بذكر صفات الله - عز وجل - المناسبة للمقام، وافتتاح بعضها بنداء الإيمان؛ لشدة ارتباط هذه الأحكام باعتقاد القلب.

- أن جميع المخالفات - سواء كانت تركًا أم فعلاً - إما قادحة في أصل الدين وناقضة للإيمان؛ كالشرك الأكبر والبدع المكفرة، وإما قادحة في كماله الواجب - وإن لم يكفر مرتكبها -؛ كالشرك الأصغر وسائر المعاصي.

وعلى هذا؛ فإن الدعوة إلى الاستقامة على جميع تكاليف الإسلام هي في حقيقتها دعوة لترسيخ التوحيد وتحقيق العقيدة.

«وحري بالدعاة أن يوجهوا جهودهم إلى تبصير الناس كيف يوحِّدون ربهم، وكيف يُخلصون دينهم لله، وعليهم أن يجعلوا ذلك هو الأصل والأساس كما كان الرسل من قبل»[١].

وانطلاق الدعوة من التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة التي حملها أهل السنة عن سلف الأمة؛ يشمل ثلاثة جوانب أساسية، بيانها فيما يأتي:

أولاً: الأثرية:

ومفهوم الأثرية يعني: أن العقيدة التي تتبناها الدعوة الراشدة هي التي تقوم

(١) التوحيد محور الحياة، لفضيلة الشيخ الدكتور/ عمر الأشقر، ص ٣٢.

في أصلها وأساسها على المنقول والمأثور من كتاب الله ـ تعالىٰ ـ وصحيح السنة والأثر، وهي عقيدة الصحابة والتابعين، وسلف الأمة الصالحين، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وهي الوسطية المحمودة، والسلفية المقصودة.

● **ومن أثرية العقيدة: تلقي النصوص بالتسليم والتعظيم.**

فالتسليم والتعظيم إنما هما لقول الله ـ تعالىٰ ـ أولاً، ولبيان الرسول ﷺ ثانيًا، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** ﴾ [**لقمان**: ٢٢]، وذلك من غير تعرض لنصوص الوحيين بتحريف الغالين، أو تأويل الجاهلين، أو انتحال المبطلين.

ومن التسليم والتعظيم مجانبة الجدال والمراء في نصوص العقيدة وقواعدها الكلية؛ إذ هي عقيدة سهلة واضحة، ميسرة بيسر هذا الدين، «إن هذا الدين يسر»(١).

والتسليم والتعظيم يُعين علىٰ تجاوز الخصومة المفتعلة ـ ظلمًا أو جهلاً ـ بين صحيح النقل وصريح العقل، فإن بدا ما ظاهره التعارض بين العقل والنقل فمرده إلىٰ الوهم في قطعية أحدهما ثبوتًا أو دلالة، فإن العقل الصريح لا يناقض النقل الصحيح ولا بد، «فمن الله ـ عز وجل ـ العلم، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»(٢).

وكما قال بعض السلف: «قدم الإسلام لا تثبت إلا علىٰ قنطرة التسليم»(٣).

● **ومن أثرية العقيدة: توحيد مصدر التلقي.**

وذلك بتجريده عن كل شوب كلامي مردود، أو فلسفي مذموم، أو مسلكي

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) من كلام الزهري. انظر: السنة، للخلال، (٣ / ٥٧٩).

(٣) انظر: شرح سنن ابن ماجه، للسندي، حديث، رقم (١٩٨)، والعين والأثر في عقائد أهل الأثر، لعبد الباقي إبراهيم، ص ٦٢.

مبتدع، بالاعتماد على الكتاب والسنة في تلقي العقيدة والدين كله بفهم الصحابة المرضيين، والثقات الأثبات من علماء خير القرون رضي الله عنهم أجمعين، والتعويل على إجماعهم واتفاقهم في هذا الباب، فَهُم أعمق علمًا بمعانيها، وأدق فهمًا لمراميها، وأقل تكلفًا في العمل بما فيها، وأبعد عن الخلاف والافتراق في أصولها وقواعدها، فما أجمعوا عليه فهو الحق ولا بد، وما اختلفوا فيه فإن الحق لا يجاوز أقوالهم؛ فمَنْ آمن بمثل ما آمنوا به فقد اهتدى، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا** ﴾ [**البقرة**: ١٣٧].

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ألا لا يقلدن رجل رجلاً دينه فإن آمن آمن وإن كفر كفر، فإن كان مقلداً لا محالة فليقلد الميت ويترك الحي، فإن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة»[١].

● **ومن أثرية العقيدة: تحقيق توحيد العبادة.**

وذلك بإفراد الله ـ عز وجل ـ بالعبادة، والبراءة من كل ما عُبد من دونه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [**النحل**: ٣٦]، وقطع ذرائع الشرك كافة، فـ «مَن تعلَّق تميمة فلا أتم الله له»[٢]، و«مَنْ أتى عرَّافًا فسأله عن شيء فصدَّقه؛ لم تُقبَل له صلاة أربعين يومًا»[٣]، و«مَن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[٤]، كما ثبت النهي عن اتخاذ القبور مساجد، واعتقاد العدوى، والتطيّر، والتصوير.. وغير ذلك من أسباب الشرك وذرائعه.

ومن تحقيق توحيد العبادة: اعتقاد تفرده ـ تعالى ـ بالأمر والحكم كما تفرد

---

(١) انظر: سنن البيهقي الكبرى، (١٠ / ١١٦).

(٢) أخرجه أحمد، رقم (١٦٩٦٩)، والحاكم، رقم (٧٥٠١)، وصححه ووافقه الذهبي من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم، رقم (٢٢٣٠)، وأحمد، رقم (١٦٢٠٢، ٢٢٧١١)، عن حفصة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه الترمذي، رقم (١٥٣٥)، وأبو داود، رقم (٣٢٥١)، والحاكم، رقم (٤٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. وحسّنه الترمذي.

بالإيجاد والخلق، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فلا حلال إلا ما أحله الله علىٰ لسان رسوله ﷺ، ولا دين إلا ما شرعه الله علىٰ لسان رسوله ﷺ.

● **ومن أثرية العقيدة: اعتقاد أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.**

وأن أصل الإيمان تصديق الخبر والانقياد للشرع، وكماله الواجب بفعل الأركان والواجبات، وترك الكبائر والمحرمات، وكماله المستحب بفعل المندوبات، وترك المكروهات، والورع عن الشبهات.

وقصر الإيمان علىٰ التصديق وإخراج الأعمال من الإيمان بالكلية تفريط مذموم، وإدخال جميع الأعمال في أصل الإيمان إفراط مذموم، والحق وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

● **ومن أثرية العقيدة: الأثرية في مصطلحاتها.**

وذلك باعتماد ألفاظ الكتاب والسنة ومصطلحاتهما عند تقرير مسائل الاعتقاد وأصول الدين، والتعبير بها عن المعاني الشرعية؛ وفق لغة القرآن وبيان الرسول ﷺ، فإن «الأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص، فيثبت ما أثبته الله ورسوله باللفظ الذي أثبته، وينفي ما نفاه الله ورسوله كما نفاه»(١)؛ مجانبة لكلام أهل الأهواء، ومفارقة لمصطلحات المتفلسفة بالآراء، وإيثاراً لمرجعية أهل السنة وكتبهم ومقالاتهم، وتعويلاً علىٰ اتفاقهم وإجماعهم، وتلقيًا عن أشياخهم والأثبات من علمائهم.

● **ومن أثرية العقيدة: توقيفية العبادة.**

وذلك بالتأكيد علىٰ كون العبادة توقيفية، وسد ذرائع الابتداع والإحداث في

(١) التفسير الكبير لابن تيمية، (٦ / ٤٠٨).

الدين، ورد جميع ما خالف سنة سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ، فمستند المشروعية -أبدًا- هو موافقة الشريعة المطهرة، بفهم الصحابة البررة، وأهل الحديث المهرة، وتطبيقهم، و«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١).

والأسوة الحسنة لهذه الأمة هو رسول الله ﷺ، فإذا صحت سنته بلا معارض؛ فلا يحل لأحد ردها لقول أحد من الخلق، قال -سبحانه-: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣].

● **ومن أثرية العقيدة: تمام العناية بعلومها العينية.**

وذلك بالتفريق لدى دراستها بين معرفة ضوابطها وحدودها الخارجية التي تحمي جناب التوحيد من ابتداع المبتدعين، وترد انحرافات الضالين، وذلك من جنس رد البدع الكلامية والفلسفية، وخوض المعارك والمناظرات مع أهل المقالات الردية؛ فإن العلم بها من فروض الكفايات، وهو على المتخصصين. وبين علوم العقيدة ومعارفها وقضاياها العينية المتعلقة بمعرفة الله -تعالى- وتعظيمه، مع التحقق بقول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح بالإيمان؛ إذ الغاية العظمى هي تحقيق توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات علمًا وعملاً، وسلوكًا وأخلاقًا، وفكرًا وجهادًا.

● **ومن أثرية العقيدة: محبة السلف الصالح أجمعين.**

قال -تعالى-: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

وشعار أهل السنة الترضي عن أصحاب نبينا أجمعين، ومحبة علماء السلف من السابقين، وتابعيهم من أهل العلم والدين، فلا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل، قال -تعالى-: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ**

(١) أخرجه البخاري، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ومن المحبة الواجبة محبة أهل بيته ﷺ وموالاتهم ومودتهم، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

● **ومن أثرية العقيدة: التثبت عند إطلاق الأحكام عامة.**

وتمام الاحتياط والتحفظ من تكفير وتبديع المخالف من أهل القبلة، والعوامِّ من أهل الملَّة، فضلاً عن علماء أهل السنة، وذلك عند التأويل والاشتباه، أو الجهل والغفلة، والتفريق بين القول وقائله، والفعل وفاعله، فمن تلبَّس بكفر أو بدعة أو فسق؛ لم يحكم عليه به في الدنيا حتىٰ تتحقق شروط إجراء الأحكام وتنتفي موانعه، وعصاة الموحدين أمرهم إلىٰ الله في الآخرة؛ إن شاء عذبهم بعدله، وإن شاء غفر لهم بفضله.

ثانيًا: الشمولية:

إن شمولية هذه العقيدة تعني عدم الاقتصار علىٰ طلب علمها وممارسة أعمالها والتحقق بمقتضياتها في باب دون باب، وفي أصل دون أصل؛ إذ لا يصح هجر شيء من عقيدة أهل السنة والجماعة، فالجمع بين علمها ومقتضياتها وآثارها في القلب والجوارح من جهة، وفي سائر جوانب الحياة من جهة أخرىٰ؛ هو تحقيق العبودية في أكمل صورها وأجلىٰ معانيها.

● **ومن شمولية العقيدة: الجمع بين البيان والرد.**

وهذا يعني الجمع بين بيان عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة، تأصيلاً وتقريراً بأدلتها النقلية والعقلية من جهة، ورد الشبهات والتنبيه علىٰ البدع والضلالات من جهة أخرىٰ.

ومن شمولية العقيدة: تحقيق إياك نعبد وإياك نستعين.

ويكون تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [**الفاتحة**: ٥]، بالاهتمام بأصول التعبد القلبي، وترسيخ حقائق الإيمان، عبادة بكامل الحب والذل، واستعانة بتحقيق التوكل، وخوفًا ورجاءً تحصل بهما النجاة، وبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، وإخلاصاً في عبودية الباطن، وخشية موجبة للتقوىٰ، ورضىٰ موصل إلىٰ التسليم، وتعلقًا يفضي إلىٰ الأنس.

وبالجملة؛ فإن عبادات القلب هي جوهر كل خير، وعنها يصدر كل بر.

● **ومن شمولية العقيدة: تلازم نوعي التوحيد.**

الجمع بين توحيد الربوبية والألوهية في العناية والعرض والتعليم، وبيان تضمن الألوهية للربوبية، واستلزام الربوبية للألوهية، وإحياء عبادة التفكر والتدبر، وهي التي تحقق توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتهدي إلىٰ توحيد الألوهية وإفراده ـ تعالىٰ ـ بالعبودية.

● **ومن شمولية العقيدة: دراسة توحيد الأسماء والصفات بجانبيه العلمي والعملي.**

فتخليص الأخلاق والسلوك من الآفات والموبقات التي تنشئها الغفلة عن مدلولات الأسماء والصفات ـ وهو الجانب العملي ـ؛ لا يقل في أهميته عن تخليص العقل والفكر من الشبهات والأهواء والبدع في هذا الباب من التوحيد ـ وهو الجانب العلمي ـ.

● **ومن شمولية العقيدة: السعي في تطبيق الشريعة.**

وبيان وثيق الارتباط بين تحكيم الشريعة والرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً؛ فلا يثبت عقد الإسلام، ولا تتحقق حقيقة الإيمان إلا بالتصديق مع الانقياد لحكم الله ورسوله، فمَنْ لم يتحقق في قلبه هذان الأمران لم يثبت له حكم الإسلام.

وإن نقل مصدرية الأحكام ومرجعيتها من الوحي المعصوم إلىٰ الهوىٰ المشؤوم اعتداء علىٰ مقام الألوهية، ونقض لعقيدة الوحدانية، وردة إلىٰ الجاهلية، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

● **ومن شمولية العقيدة: تحقيق عقيدة الولاء والبراء.**

وذلك بالاهتمام بتأصيل عقيدة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين كل بحسبه، وتخليص الولاء بين الأتباع والمتبوعين من الموافقة علىٰ المخالفة، أو ترك التذكير والمناصحة، أو اعتقاد التقديس والعصمة، أو ترك التأييد والنصرة.

والاهتمام بتحقيق البراء من كل ما خالف صحيح الاعتقاد من البدع والشركيات، ومجانبة مَنْ خالفها من أهل الضلالة والأهواء، كل بحسبه، ومن والىٰ علىٰ ملة غير ملة الإسلام فقد هدم الدين، وصار في زمرة الظالمين، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

مع تخليص البراء من سوء الفهم في لزوم الاعتداء، أو ترك الوفاء، أو مجانبة الإنصاف.

● **ومن شمولية العقيدة: التوازن في العرض والبيان.**

ويعني التوازن والشمول بين عرض قضايا الإيمان وحقائقه من جهة، ومبطلاته ونواقضه من جهة أخرىٰ، والاهتمام بسد الطرق الموصلة إلىٰ الشرك كافة، وحماية جناب التوحيد عامة.

● **ومن شمولية العقيدة: سعة الفهم والمواجهة للانحرافات كافة.**

ويقصد به سعة الفهم لأنواع وصور الانحراف عن صحيح الاعتقاد، فلا فرق بين انحراف وشرك حضاري وآخر بدائي، والعناية بمواجهة تلك

الانحرافات المعاصرة، سواء كانت عند الأضرحة والقبور، أو لدىٰ أرباب الحكم والقصور، ومواجهة تيارات الإلحاد والتغريب والعلمنة في الأدب والفكر والثقافة، وشتىٰ العلوم الإنسانية.

ثالثًا: الإيجابية:

إن هذه العقيدة لا يكمل الانتساب إليها حقًا ولا الانتماء لها صدقًا إلا بالعمل بها والدعوة إليها، بعد اعتناقها وتعلمها والتفقه فيها، فالعقيدة تمارس ـ عمليًّا ـ بالبلاغ والسعي بها، والبلاغ والسعي تضبطهما العقيدة ـ هدفًا ووسيلة وغاية ـ، والعقيدة الإيجابية الحية هي التي لا يقف أثرها عند مجرد التصديق النظري؛ بل يتعدىٰ ذلك لينشئ واقعًا عمليًّا.

● **ومن إيجابية العقيدة: ارتباطها بآثارها العملية.**

وهي تظهر من خلال العناية بشعائر التعبد، واستقامة الأخلاق، وانضباط السلوك، وازدياد الأدب، ونبل المشاعر، فلا يقتصر عند الدعوة إليها علىٰ الجانب العلمي النظري دون الجانب العملي السلوكي، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [**الأنعام**: ١٦٢ ـ ١٦٣].

● **ومن إيجابية العقيدة**: وضوح آثارها على مسلك الداعية.

بحيث يظهر أثرها علىٰ فكر الداعية، فتُرىٰ في أهدافه، وتُسمع في أقواله، وتقرأ في كتاباته، مع تعظيم علمائها وتقدير دعاتها كافة، والتعاون معهم علىٰ اختلاف مسالكهم العملية، لإقرارها ونصرتها، وتكثير سواد أهلها، والاجتماع والوحدة علىٰ أساسها.

● **ومن إيجابية العقيدة: تسديد منهج النقد والتقويم.**

ويتمثل في الصدور عنها في نقد وتقويم الأشخاص والأحداث والمواقف،

واتخاذها دون غيرها من الأسماء والشعارات أساسًا للاجتماع والمتابعة، والافتراق والمفاصلة، والحب والموالاة، والبغض والمعاداة.

● **ومن إيجابية العقيدة: انضباط منهج الدعوة بها.**

وذلك بالتقيد بها في منهج الدعوة كله، ورفض الوسائل والأساليب المنافية لها؛ إذ الغاية ـ وإن علت ـ لا تسوِّغ الوسيلة إذا نزلت، وأما التقيد بها في جانب دون جانب؛ فذلك قادح في صدق الانتماء لها.

● **ومن إيجابية العقيدة: اتقاد جذوة التضحية في سبيلها.**

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [**الأحزاب**: ٢٣]، فهذه الآية هي لسان حال كل داعية صادق، يبذل لعقيدته في كل وقت، وعلىٰ كل حال، فلأجلها يسالم، ولأجلها يقاوم، ومن أجلها يسعىٰ ويتحرك؛ ينفق ماله، ويبذل جهده، ويستفرغ وسعه، ويُزهق روحه لتنتصر وتسود، ويمكَّن لها ولأهلها في الأرض.

وبتحقق الدعوة بهذه الجوانب الثلاثة (الأثرية، والشمولية، والإيجابية)؛ يكون التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة الأساس الأول والمنطلق الرئيس للدعوة والدعاة إلىٰ الله تعالىٰ.

الأصل الثاني
الإخــــلاص

الإخلاص هو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة النبيين، قال ـ تعالى ذكره ـ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، والإخلاص الذي هو شرط قبول العمل؛ يعني تصفية العمل من كل شوب، وإفراد الله ـ تعالى ـ بالقصد في الطاعات والحركات والسكنات.

وما كان الإخلاص في صغير إلا عظَّمه، ولا نُزع من كبير إلا صغَّره، به يبلغ المرء ما لا يبلغه بعمله، وتتفاوت منازل العاملين بحسب قدره؛ إذ مدار القبول عند الله على السرائر لا على مجرد المظاهر.

وأهل الإخلاص رفع الله قدرهم بما كتموا من الصالحات، وبما زهدوا في الجاه والرياسات، وبما أزروا على أنفسهم وأعمالهم في جنب الله تعالى، وبما حرصوا على هداية الخلق إلى الحق، والتنزه عن طلب الأجر، وتقديم مرضاة الله في كل أمر.

والعمل في الدعوة إلى الإسلام، واستئناف قيادته للحياة بعقيدته وشريعته وأخلاقه وحضارته؛ إنما هو عبادة وقربى إلى الله ـ عز وجل ـ من جهة، وجهاد في سبيل الله من جهة أخرى، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر من جهة ثالثة، والداعية المنتسب بدعوته إلى الله يتجرد من هواه ورغبته ورهبته ومصلحته، ويعتقد قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

فالمخلصون هم جند الدعوات يبتغون بعملهم وجه الله تعالىٰ، ويسمَوْن فوق المنافع الذاتية والمصالح الشخصية، هم الذين ينتصرون بالدعوة وتنتصر بهم الدعوة؛ ولو كانوا فقراء مغمورين أو ضعفاء مجهولين، «رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم علىٰ الله لأبرّه»(١).

روح حياتهم الصدق والإخلاص: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهم مع هذا لا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فـ«مَنْ كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة»(٢)، وفي المقابل فإن شر ما تُصاب به دعوة إلىٰ الله هو فقد روح الإخلاص بين أهلها وأبنائها، وظهور الذين يلبسون جلد الضأن من اللين، وقلوبهم قلوب الذئاب، وهم مع هذا لا يأتيهم من الدنيا زيادة علىٰ ما قُسم لهم؛ إذ «مَنْ كانت الدنيا همَّه جعل الله الفقر بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له»(٣)، فالناس أحد رجلين عبد لله أو عبد لما سواه، فلا يجتمع الإخلاص التام في القلب ومحبة الدنيا والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار.

ومن مظاهر الإخلاص ودلائله في مسيرة الدعوة:

● **انطلاق أعمال الدعوة من شعور غامر بالرحمة والشفقة على عباد الله أجمعين:**

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وفي الحديث الصحيح: «إنّما مَثَلي وَمَثَلُ أُمَّتي كَمَثَلِ رَجُل اسْتَوْقَدَ ناراً، فَجَعَلَتِ الدَّوابُّ والفَرَاشُ يَقَعْنَ فيه، فَأَنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنتم تَقَحَّمُونَ فيه»(٤).

(١) أخرجه مسلم، رقم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الترمذي، رقم (٢٤٦٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، بإسناد صحيح.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه البخاري، رقم (٣٤٢٧)، ومسلم، رقم (٢٢٨٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

● **الفرح بكل كفاءة تبرز في ساحة الدعوة إلى الله:**

وتمام الكمال في تقديمها وتدعيمها، فهذا لازم سلامة الصدر والنصح للمسلمين، فعن جرير بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنه ـ قال: «بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم»[١]، وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «وددت أن الخلق يتعلمون هذا العلم ولا يُنسب إليَّ منه شيء»[٢]، و«قيل لحاتم الأصم: أنت رجل ألكن أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعتَه! قال: معي ثلاث خصال بهن أظهر على خصمي: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي أن لا أتجهل عليه. فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فقال: سبحان الله، ما أعقله!»[٣].

● **طلب الحق وتعظيم أهله؛ مَنْ كانوا وحيث كانوا:**

قال الشافعي: «ما كابرني أحد على الحق ودافع إلا سقط من عيني، ولا قبله إلا هبته واعتقدت مودته»[٤].

فالدعاة المخلصون يحذرون فتنة الجماهير، كما يحذرون فتنة السلاطين، ولا يجوز بحال أن يكون همّ الدعاة تقديم ما يطلبه المستمعون؛ بل مقتضى الإخلاص أن يتكلم الدعاة بما يعتقدون أنه الحق، سواء وافق أهواء الناس أو خالفها، لا يخافون في الله لومة لائم، لا سلطان عندهم إلا سلطان الشرع، ولا صلة يحرصون على تدعيمها إلا صلتهم بالله ـ تعالى ـ ومن والاه، وهذه حقيقة لا إله إلا الله، وهذا هو الإخلاص الذي فيه الخلاص.

● **الصبر والصفح:**

قال ـ تعالى ـ: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٩٩]،

(١) أخرجه مسلم، رقم (٥٦).
(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني، (٩/ ١١٨).
(٣) حلية الأولياء، (٨/ ٨٢)، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، (٨/ ٢٤٢).
(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (١٠/ ٣٣).

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «كأني أنظر إلىٰ النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون!»(١).

والمخلص من الدعاة يعفو ويصفح، ويتأسىٰ بالإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ حين عفا عن الخليفة المعتصم فقال: «وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم في سبيلك!»(٢).

● **العدل والورع والتثبت عند الحكم على الرجال والطوائف:**

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا**﴾ [**الأنعام**: ١٥٢]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا**﴾ [**المائدة**: ٨]، ولاسيما عند الكلام علىٰ أهل العلم والدعوة؛ إذ «لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، ومَنْ وقع فيهم بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب»(٣).

وليحذر كل داعية من استحلال الأعراض بذريعة التقويم، وليجتنب إلباس الحسد والهوىٰ والظلم لبوس النصح وبيان الحق، وإنما الأعمال بالنيات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل، لا بجهل وظلم كحال أهل البدع»(٤).

ومعاملة أهل الفضل بالفضل أولىٰ وأحرىٰ، والتماس المعاذير لأهل العلم والدعوة أتقىٰ وأرضىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٣٤٧٧)، ومسلم، رقم (١٧٩٢).
(٢) سير أعلام النبلاء، (١١ / ٢٦١).
(٣) الرد الوافر، لابن ناصر الدين الدمشقي، ص ١٩٧.
(٤) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، (٤ / ٣٣٧).

ومن مظاهر ضعف الإخلاص أو غيابه وآثار ذلك:

● **الانفصال بين العلم والعمل:**

أو قل - إن شئت - بين الفكر والسلوك، وتحول عبادة الدعوة إلىٰ مجرد فكرة أو مذهب أو حزب أو ثقافة، فضلاً عن تحولها إلىٰ تجارة!! والتغافل عن قوله - تعالىٰ -: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [**الأنعام**: ١٦٢]، والتعرض لوعيد قوله - تعالىٰ -: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [**الصف**: ٣].

● **هيجان الرعونات النفسية والحظوظ الشخصية:**

وقيام حجاب الأنانية وحب الذات، والجاه والمنزلة، واتباع الهوىٰ، قال - تعالىٰ -: ﴿**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [**ص**: ٢٦]، وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوىٰ متبع، وإعجاب المرء بنفسه من الخيلاء»[(١)]، وكثيراً ما يُصاب الدعاة بمثل هذه الآفات، من حيث شعروا أو من حيث لا يشعرون.

● **الاختلاف والافتراق:**

وعن ذلك ينشأ الطعن في الثقات، وكثرة التنقل بين الاتجاهات، والتلون تحت الرايات، لا بحثًا عن حق، ولكن لشهوة في النفس خفية، مع سريان روح التحاسد والتباغض، والتهاجر والتدابر.

وما كل ذلك إلا نتيجة ما فسد من السرائر بين العبد وربه، وإلا فالصحابة - رضي الله عنهم - كان بينهم من المحبة والألفة - مع وجود الخلاف - ما هو جزاء ما أسرُّوه في أنفسهم من الإخلاص في الطاعة والدعوة، وحب الاجتماع والائتلاف، وبغض الافتراق والاختلاف، فعن عثمان - رضي الله عنه - أنه قال:

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم (٥٤٥٢)، بسند حسن.

«مَنْ عمل عملاً كساه الله رداءه؛ إن خيراً فخيراً، وإن شرًّا فشرًّا»[١].

● **التعصب للأشخاص والمذاهب والطوائف:**

ومن العدل أن يُذكر المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فلا تُهوّن أخطاء الموافق، ولا تهوّل أخطاء المخالف، وما أحسن قول مَنْ قال: «عادتنا في مسائل الدين كلها دِقِّها وجِلِّها أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة؛ بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك ونموت عليه، ونلقى الله به ولا قوة إلا بالله»[٢].

● **حب الدنيا والسقوط في فتنتها:**

ولا سيما حب الجاه والرياسة، وفتنة المال.

وفي الحديث: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف؛ لدينه»[٣].

وأخيراً.. فإن الإخلاص روح العقيدة ولب الأخلاق، وأصل أصول الدعوة إلى الله، فلا نصر لغير المخلصين، ولا تمكين لغير الصادقين، و«كل ما لا يراد به وجه الله - عز وجل - يضمحل»[٤].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد، رقم (٧٢)، وابن أبي شيبة في المصنف، رقم (٣٥٤٢٠)، وأحمد في فضائل الصحابة، رقم (٧٧٧).

(٢) طريق الهجرتين، لابن القيم، ص ٥٨٢.

(٣) أخرجه أحمد، رقم (١٥٣٥٧، ١٥٣٦٧)، والدارمي، رقم (٢٧٣٠)، والترمذي، رقم (٢٣٧٦)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) من كلام الربيع بن خثيم. انظر: سير أعلام النبلاء، (٤ / ٢٥٩).

الأصل الثالث
الاتبــاع

يأتي توحيد المتبوع ﷺ بعد توحيد المعبود ـ عز وجل ـ، فالاتباع شرط القبول الثاني بعد تجريد التوحيد والإخلاص، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [**الكهف**: ١١٠]، وكل «مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[١].

وحقيقة الاتباع: تصديقه ﷺ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهىٰ وزجر وحذَّر، وألا يُعارض الأمر والنهي بترخص جافٍ، ولا بتشدد غالٍ، ولا يُحملا علىٰ علّة توهن الانقياد.

قال شيخ الإسلام: «إن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة؛ بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ»[٢].

والاتباع الصادق سبيل إقامة الأمر، وحصول الأجر، والأمن من الفتنة ومغفرة الوزر، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [**النور**: ٦٣].

وهو دليل محبة الله عز وجل، قال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [**آل عمران**: ٣١].

والنجاة في الدنيا من الابتداع والافتراق، وفي الآخرة من النار والعذاب؛

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم، رقم (١٧١٨)، وهذا لفظه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) مجموع الفتاوىٰ، (٣ / ٣٤٦)، بتصرف.

إنما تكون بالاتباع، فعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة»، قالوا: «ومَنْ هي يا رسول الله؟»، قال: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي»(١).

والاتباع يكون للكتاب المنزَّل، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ويكون للنبي المرسل، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فيكون بذلك اتباعًا للشرع المطهر، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ [الجاثية: ١٨]، ويكون أخيراً للرعيل الأول، قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، قال الإمام أحمد: «إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام!»(٢).

وشأن الاتباع أن يكون في الاعتقاد، وقد ضل فيه أهل الأهواء كالخوارج والقدرية.

كما يكون أيضًا في السلوك، وقد ضل فيه أهل الرهبانية من غلاة الصوفية.

والاتباع في شأن الدعوة إلى الله أمر واجب وحتم لازم، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والمخالفة في ذلك مخالفة لسبيل المؤمنين وتعرض للفتنة أو العذاب الأليم، قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

---

(١) أخرجه الترمذي، رقم (٢٦٤١)، والمروزي في السنة، رقم (٥٩)، والحاكم في المستدرك، رقم (٤٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسّنه الترمذي.

(٢) سير أعلام النبلاء، (١١ / ٢٩٦).

فسبيل البدع والشبهات والضلالات من أخطر ما يتهدد الحركات والدعوات، فلا يملك الدعاة في منهج الدعوة وأصولها ومسالكها إلا أن يأخذوا بسنن الهدىٰ، وأن يتجنبوا سبل الردىٰ؛ إذ البدعة اتهام لمقام النبوة بالخيانة في أداء الأمانة، فهي تستدرك علىٰ الشريعة تهمة لها، أو مضادة لأصلها، وهي في ذلك كله قول علىٰ الله بغير علم، فكانت شرًّا من المعصية، وغدت ذنبًا لا يُتاب منه، وكيف يتوب مَنْ يعتقد نفسه - بزعمه - متبعًا؟!

والناكصون عن الاتباع أهل جهل وتعصب، وغلو وهوىٰ، يجادلون في الحق بعدما تبين، يجتمعون علىٰ التهوين من مذهب السلف وانتقاصهم، «مختلفون في الكتاب، مخالفون في الكتاب، متفقون علىٰ مخالفة الكتاب»(١).

وتتفاوت المعاملة مع المخالف من أهل البدع، تارة ببيان الحق والنصح بلا محاباة، وتارة بالتألُّف والمداراة، وثالثة بالهجر والمجافاة، وذلك بناءً علىٰ تفاوت مراتب البدع نفسها، واختلاف حال أهلها، وبحسب المصالح والمفاسد المترتبة في الزمان والمكان؛ إذ كل ذلك من مسائل السياسة الشرعية التي تُبنىٰ علىٰ تحصيل المصالح وتكميلها، ودفع المفاسد وتقليلها.

والاتباع في الدعوة يشمل معالم علمية وعملية؛ منها:

- **حسن الاقتداء وكمال الاهتداء:**

وتمام الموافقة للسلف الصالح في العلم والعمل والدعوة، فقد «أُمرنا أن نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع»(٢).

ولقد نُدبنا إلىٰ الإقدام حيث أقدموا، والإحجام حيث أحجموا، والسكوت

---

(١) الرد علىٰ الجهمية والزنادقة، للإمام أحمد، ص ٦.

(٢) من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: شرح أصول الاعتقاد، للالكائي، (١/ ٨٦).

حيث سكتوا، «قف حيث وقف القوم، وقل كما قال القوم، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم»(١).

وما وسع السلف من الخلاف فإنه يسع مَنْ بعدهم، ومَنْ لم يسعه ما وسعهم فلا وسع الله عليه!

● **الحذر من اتباع الهوى:**

واجتناب التقدّم بين يدي الله ـ تعالىٰ ـ ورسوله ﷺ بقول أو رأي، ولزوم الدليل كتابًا وسنة، وما استند إليهما من الإجماع الصريح والقياس الصحيح، أما تقديم آراء الرجال حالاً فهو ينقض دعوىٰ اتباع الدليل مقالاً، فأقوال الرجال يُحتج لها بالأدلة الشرعية، ولا يُحتج بها علىٰ الأدلة الشرعية، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [**الأنعام**: ١١٩].

● **فتح باب الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص قاطع أو إجماع:**

فلا إثم ولا تضييق علىٰ مَنْ اجتهد بعد تحصيل آلة الاجتهاد فأخطأ الصواب، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد في الجملة، ولا يجب علىٰ أحد من المسلمين تقليد إمام بعينه، «وإذا نزلت بالمسلم نازلة فإنه يستفتي مَنْ اعتقد أنه يفتيه بشرع الله ورسوله من أي مذهب كان، ولا يجب علىٰ أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء في كل ما يقول، ولا يجب علىٰ أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معين غير الرسول ﷺ»(٢).

● **الحذر من الزلات:**

لا يُعد من مسائل الاجتهاد ما ورد فيه خلاف شاذ، أو جرىٰ مجرىٰ الزلة

---

(١) من كلام الأوزاعي رحمه الله. انظر: شرح أصول الاعتقاد، (١ / ١٥٤)، وحلية الأولياء، (٦ / ١٤٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ، (٢٠ / ٢٠٨).

والهفوة من أقوال العلماء، فلا يُتابعون عليها، ولا يُقلدون فيها، ولا يُشنَّع عليهم بسببها، «والكامل مَنْ عُدَّت سقطاته، والسعيد مَنْ حُسبت هفواته»[١]، فيُؤخذ من قولهم ويُترك، والمعصوم هو الرسول ﷺ. وتتبع الزلات، والتدين بالهفوات سبيل قاصد للزندقة.

واتباع أهل العلم إنما يصح من حيث كونهم وسائل لمعرفة أمر الله وشرعه فحسب، قال أبو حنيفة: «لا يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتىٰ يعلم من أين قلت!»[٢].

● **ضبط مسائل الخلاف والاختلاف:**

وذلك بالتفريق بين المسائل الاجتهادية التي يُقبل فيها الخلاف ولا يطلب فيها الإنكار والتضييق علىٰ المخالف، وبين مسائل الاختلاف التي لا يسوغ فيها خلاف، مع التأكيد علىٰ أهمية إحياء أدب الخلاف في الإسلام وممارسته، كما أقامه الصحابة والأئمة من بعدهم.

● **ترك الإنكار لا ينافي بيان الراجح:**

لا تعارض بين ترك الإنكار والتضييق علىٰ المخالف في المسائل الاجتهادية العلمية والعملية، وبين التحقيق العلمي لها وبيان ضعف مأخذ المخالف.

وما زال أهل العلم سلفًا وخلفًا يرد بعضهم علىٰ بعض، مع حفظ المودة، وبقاء العصمة والألفة، وما من أحد من أهل العلم إلا رادٌّ ومردودٌ عليه.

● **جواز التقليد والاجتهاد والاتباع:**

القول الصحيح في التمذهب جوازه بلا تعصب، وتقديم الراجح بدليله بلا تردد، والعالم المنتهي فرضه الاجتهاد، والعامي فرضه التقليد؛ فمذهبه مذهب

---

(١) الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، ص ١٤٥.
(٢) يتيمة الدهر، للثعالبي، (١ / ١١١).

مَنْ أفتاه.

وطالب العلم المبتدئ أشبه بالعامي، والمتقدم أشبه بالعالم؛ ففرضه الاتباع لأهل العلم بأدلتهم، ولا يصح الإعراض عن تراث الفقهاء بحجة الاجتهاد ونبذ التقليد، كما لا يسوغ إهمال الدليل الصحيح الذي لا معارض له، وتقديم آراء الفقهاء عليه بلا فحص ولا تمحيص.

● **العناية بمنهج الاستدلال وفقه الدليل:**

ينبغي الحذر من تحول قضية الأخذ بالدليل عند طائفة إلى نوع من الظاهرية والسطحية التي تجمع إلى الشذوذات والغرائب ضعف التأصيل الفقهي للمسائل، فإنه نوع قول على الله بغير علم، قال ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**الأعراف**: ٣٣].

والأخطر أن يُعَدَّ الشذوذ اجتهاداً، والجرأة على الفتوى تجديداً، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ**﴾ [**النحل**: ١١٦].

● **انضباط الفتوى:**

الأصل في الفتوى أن تناط بالمجتهدين، فإن عُدموا اعتُبر الأمثل فالأمثل، مع الاعتناء بسوق الحكم بدليله، وبيان العلة والحكمة ما أمكن إلى ذلك سبيل، «فينبغي للمفتي أن يذكر دليل الحكم ومأخذه ما أمكنه ذلك، ولا يلقيه إلى المستفتي ساذجًا مجردًا عن دليله، فهذا لضيق عطنه، وقلَّة بضاعته في العلم»[١].

---

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم، (٤ / ١٦١).

ويتأكد استصحاب روح الشريعة ومقاصدها من رفع الحرج ومراعاة المصالح عند الفتوىٰ، ولكن لِيُحذر من التسيّب في الفتوىٰ بدعوىٰ التيسير، أو فهم الواقع، أو الحاجة والضرورة، فإن التيسير لا يُسوِّغ تجاوز النصوص أو إهمالها، وفهم الواقع لا يعني تطويع الأحكام الشرعية أو استبدالها، والقول بالحاجة والضرورة لا يصح إلا بتحقق شروط واستجماع ضوابط محددة، كما لا يُنكر تغير الفتوىٰ بتغير الزمان والمكان والأحوال.

قال الشاطبي: «والمفتي البالغ الذروة هو الذي يحمل الناس علىٰ المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلىٰ طرف الانحلال»[1].

وإذا كان للمفتي أن يأخذ نفسه بالعزائم وما هو الأورع، إلا أنه حين يفتي غيره يلاحظ الوسط المناسب لجمهور الناس.

والحذر الحذر من التسرّع في الفتيا، وأعلم الناس بالفتاوىٰ أسكتهم، وأجهلهم بها أنطقهم.

وجُنَّة العالِم: «لا أدري»، و«إذا ترك العالم: لا أدري؛ أصيبت مقاتله»[2].

قال الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ: «سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورِّث جلساءه من بعده «لا أدري» حتىٰ يكون أصلاً في أيديهم، فإذا سُئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري»[3].

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: «لا يستحي عالم إذا سُئل أن يقول: الله أعلم»[4].

---

(١) الموافقات، للشاطبي، (٤ / ٢٥٨).

(٢) من كلام سفيان بن عيينة رحمه الله. انظر: حلية الأولياء، (٧/ ٢٧٤).

(٣) تفسير القرطبي، (١ / ٢٨٥).

(٤) حلية الأولياء، (١ / ٧٦).

● التمييز بين البدع المحدثة والمصالح المرسلة:

ومن فقه الاتباع توجيه العناية إلىٰ التفريق بين البدع المحدثة المذمومة، وما استُحدث من الأمور التي دليلها المصالح المرسلة؛ فإن الأولىٰ متفق علىٰ ردها مطلقًا، والثانية متفق علىٰ قبولها في الجملة، إلا إذا عارضتها أدلة الشرع فلا تُعتبر.

● الجمع بين الاتباع العلمي والعملي:

والاتباع كما ظهر جليًّا في الجوانب العلمية والمسائل الخبرية فإنه أظهر في المسائل العملية، ووجوبه ألزم في مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله.. ونحو ذلك من الأصول العملية.

● الطاعة في المعروف:

من أعظم أصول أهل السنة التزام الطاعة للأئمة ما أقاموا كتاب الله في الأمة، وترك مخالفتهم ونقض بيعتهم، والطاعة المطلقة لا تكون لأحد بعد الله ـ تعالىٰ ـ ورسوله ﷺ.

والشورىٰ ومناصحة الأمة للأئمة شريعة ماضية، وشعيرة مرضية، وهي إنما تكون فيما دخل في دائرة العفو والمباحات، والمسائل العملية الاجتهادية.

وكل ما أُحدث من الأقوال والأفعال ومناهج الحكم علىٰ خلاف الشريعة فهو رد، لا حرمة له، ولا أثر يترتب عليه، إلا ما دعت إليه الضرورة.

● الاجتماع على الاتباع:

كما أن الاتباع واجب شرعي وضرورة علمية، فكذلك الاجتماع مطلب شرعي وضرورة عملية، فينبغي السعي إلىٰ الاجتماع علىٰ المنهج الحق والاتباع، مع الموازنة بين الواجبين في حال السعة والاختيار، وفي حال التدافع والاضطرار، واختيار الأرجح؛ نظراً للمسلمين، وتحقيقًا لمصلحة إعزاز الدين.

● **وسائل الدعوة بين الإطلاق والتقييد:**

وتتأكد العناية بالاتباع في وسائل الدعوة، فلا يُقلَّد الكفار في وسائلهم التي هي من شعار دينهم، ولا تُعتمد وسيلة أهدرتها نصوص الوحي فمنعتها أو نفَّرت منها، وكل وسيلة بعدُ فهي مباحة متىٰ ما حققت المقصود الشرعي؛ إذ ليست وسائل الدعوة توقيفية بإطلاق، ولا هي مطلقة من كل قيد، وكما أن الغايات يجب أن تكون شرعية فالوسائل كذلك، و«الوسيلة إلىٰ أفضل المقاصد أفضل الوسائل، وإلىٰ أقبح المقاصد أقبح الوسائل»[1].

فالحاصل أنه «ليس للوسائل حد شرعي، فكل ما أدَّىٰ إلىٰ المقصود فهو مقصود؛ ما لم يكن منهيًّا عنه بعينه، فإن كان منهيًّا عنه بعينه فلا نقرّ به، . . . وليس من اللازم أن ينص الشرع علىٰ كل وسيلة بعينها فيقول: هذه الجائزة، وهذه غير جائزة؛ لأن الوسائل لا حصر لها ولا حد لها، فكل ما كان وسيلة لخير فهو خير»[2].

---

(١) الفروق، للقرافي، (٢/ ٣٢).
(٢) لقاءات الباب المفتوح، مع فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين، (١/ ٤٤٩).

الأصل الرابع
العلم

العلم بالله ـ تعالىٰ ـ وبأمره أعظم من أن يحاط بفضله، أو يدرك جليل قدره؛ فإن تعلُّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، هو الأُنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدِّث في الخلوة، وهو معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل أهل الإسلام، وهو العُدة في البلاء، والزينة في الرخاء، والفضل بين الأخلاء، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلىٰ في خير دار، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]، قال الإمام الزهري: «ما عُبد الله بشيء أفضل من العلم»(١).

وتكمن أهمية العلم ويظهر مسيس حاجة الدعوة إليه في النقاط الآتية:

- **العلم نبراس الدعوة:**

«إذا كانت الدعوة أشرف مقامات العبد وأجلَّها وأفضلها؛ فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، ولا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلىٰ حد يصل إليه السعي»(٢).

وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمد: ١٩]؛ يقرر أن العلم قبل القول والعمل، فالعلم أمام العمل وإمامه، ذلك أن العلم شجرة والدعوة ثمرة؛ فالدعوة بلا علم سعي بلا هدىٰ، فيتعين علىٰ كل داعية أن يتعلم

(١) حلية الأولياء، (٣/ ٣٦٥).
(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (١/ ١٥٤).

من دينه ما تصح به دعوته وما يؤهله لإظهار الحق ودحض شبهات الباطل، كلٌّ بحسب حاله. وهذا من البصيرة المذكورة في قوله - تعالىٰ -: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [**يوسف**: ١٠٨].

فالعلم يجب أن يكون سمت الدعوة الراشدة، وإذا أراد الله بدعوة خيرًا فقَّه رجالاتها في الدين.

● **العلم الشرعي قبل الرأي الشخصي:**

الدعوة إلىٰ الله - تعالىٰ - في هذا الزمان تعالج أمورًا عظيمة، وقضايا كبيرة، ونوازل في مختلف الجوانب التي يجب أن تنالها يد الإصلاح، وما لم يكن من أهل الدعوة أولو علم واجتهاد وبصيرة؛ فإن الدعوة ستسير ولكن إلىٰ غير هدف، وستقاتل ولكن في غير ميدان، فتضطرب في آرائها، وتخطئ في مواقفها، فقد تعادي مَنْ ينبغي أن تصالحه، وقد تهادن مَنْ يجب أن تنابذه، ولن يغني عنها حماس أتباعها شيئًا، كما لم تغن آراء القادة - من قبل - قليلاً ولا كثيراً، والواقع يشهد بتحوُّل المواقف والرؤىٰ - في قضايا كثيرة - من الضد إلىٰ الضد، ومن أسباب هذه الحالة ضعف العناية بالعلم الشرعي ولا شك.

قال عمر - رضي الله عنه -: «تعلَّموا قبل أن تسودوا»، قال البخاري: «وبعد أن تسودوا، وقد تعلم الصحابة وهم كبار»[1].

● **العلم سبيل الوحدة والائتلاف:**

إن ما قد يوجد من مظاهر التخالف والتدابر بين صفوف الدعاة مرده إلىٰ أمور كثيرة؛ أظهرها: افتقاد العلم الشرعي أو ضعفه، وغياب فقه الدعوة إلىٰ الله، وخفوت نور الربانية في الصدور.

ولا سبيل إلىٰ تلافي أسباب هذه الحالة إلا بالإخلاص لله عز وجل، وإحياء

(١) انظر: فتح الباري، (١ / ١٦٦).

الربانية، وغلبة روح التأصيل العلمي، والتفريق بين المقبول والممنوع من الخلاف، والمحكم والمتشابه من النصوص، والقطعي والظني من الدلالات.

● **إنما العلم الخشية:**

وصف الله ـ تعالىٰ ـ المبلِّغين عنه فقال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ [**الأحزاب**: ٣٩]. وغني عن البيان أن العلم ليس مجرد حفظ ورواية؛ بل لا بد فيه من الفهم والاستنباط، وهما معًا لا يكفيان؛ بل لا بد من العمل والتطبيق، ولا يكمل العمل والتطبيق إلا بحصول أثر في القلب والنفس والعين من خشية الله تعالىٰ، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ [**فاطر**: ٢٨].

و«إنما الفقيه من وَرِعَ عن محارم الله، والعالِم مَنْ خاف الله»(١). وإذا ملأت خشية الله قلب الداعية وطالب العلم نفذ قولُه، وقُبلت دعوته، وإذا قلَّ حظه من التقوىٰ لم يُجْدِه شيئًا فصلُ البيان، ولا شقشقةُ اللسان.

والعلم المقصود في مجال الدعوة إلى الله على ضربين:

الأول: ما لا يسع الداعية جهله:

وهو ـ بعد أن يتعلم كل داعية ما يصح به تدينه، وما لا يسعه أن يجهله في العقائد والعبادات والمعاملات ـ الإلمام العام بهدي النبي ﷺ في الدعوة، ومنهجه في الإصلاح، وسنن الله ـ تعالىٰ ـ في التغيير والاستخلاف من جهة، ومن جهة أخرىٰ الإلمام بقضايا الدعوة أهدافًا وموضوعًا وأسلوبًا، سواءً في ذلك ما هو فرض عين علىٰ كل مكلَّف مخاطب بالدعوة، أو ما كان يختص به بعض الدعاة دون بعض، مع إعطاء ما يجب من الاعتبار نحو الأحوال العامة في كل عصر ومصر لاتصالها بحياة المدعوين وعملهم، وكذا يجب معرفة ما يتحقق به

(١) من كلام الشعبي رحمه الله. انظر: حلية الأولياء، (٤/ ٣١١).

الواجب من وسائل الدعوة؛ إذ للوسائل حكم المقاصد، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ ولئلا يحصل عكس المقصود من الدعوة؛ إذ كم من مريد للخير لم يصبه.

* كما أن هناك تفاوتًا بين ما يجب من الوسائل باعتبار تفاوت القضايا نفسها، فليس ما يجب من العلم للدعوة إلىٰ أصول الدين المشهورة الجلية، أو ما يجب للدعوة إلىٰ إحياء المهجور من السنن الجلية، أو إماتة البدع الرائجة، كمثل ما يجب من العلم عند الدعوة إلىٰ دقيق المسائل وخفي السنن.

* ثم إن التفاوت قائم في قدرات الدعاة وأحوالهم، والوجوب مناط بالقدرة، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. والضابط العام لفرض العين من العلم علىٰ الداعية: أن كل ما وجب علىٰ الداعية المعيَّن عمله، وجب عليه علمه، وكل بحسبه.

الثاني: فرض كفاية:

ويتعلق بالدعاة المتخصصين في مختلف علوم الشريعة، والذين يطوّلون الباع في التخصصات المتنوعة؛ بحيث يتحقق في مجموعهم أو في بعض أفرادهم وصف الاجتهاد الذي يهيئ للنظر في نوازل الوقت، ويمكِّن من استنباط الأحكام، وتخريجها علىٰ نظائرها، وتحقيق المصالح الشرعية المعتبرة وتكميلها، ودفع المفاسد أو تقليلها والموازنة بين الإيجابيات والسلبيات، دعمًا وتسديدًا لمسيرة الدعوة، وحفظًا وترشيدًا لجهود العاملين.

ويتأكد على طلبة العلم والدعاة الاستمساك بالمعالم الآتية:

- **تصحيح النية:**

من القواعد الضرورية لطلب العلم: تصحيح النية والإخلاص في الطلب، فيطلب العلم لله تعالىٰ، ولتحقيق الخشية، ولتصحيح العمل، ولزيادة الأدب،

ولتحصيل فضل الاقتداء بالنبي ﷺ، وللتزود من الصالحات، ولإقامة الدين، ولقيادة الدنيا وحصول التمكين.

فإذا صحت النية على ذلك كله فـ «لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم»[١].

● **التحلي بصفات الربانيين:**

وذلك بالتحلي بالثبات على الحق، وسهولة الرجوع عن الخطأ، والتحلي بالزهد والورع والتواضع وإيثار الآخرة، والسمت الصالح، والتصدي للعامة بالإرشاد، والاستزادة من النوافل المتأكدة في حق أهل العلم والدعوة، كتلاوة القرآن والذكر، والصيام والقيام، قال ـ تعالى ـ: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩]، وليعلم أهل العلم أن «أعلم الناس بالله أخوفهم له»[٢].

● **صرف الهمة إلى الجوانب المثمرة من العلوم:**

ويتأكد التواصي بالبعد عن الترف الفكري والجدال العقيم، والخلافات التي لا ثمرة لها، والحرص على الانتفاع بالعلم عملاً وهديًا وسمتًا، وكل مسألة لا ينبني عليها عمل قلبي أو بدني، فالخوض فيها خوض فيما لم يُستحسن شرعًا، وكل سؤال على وجه التكلف والتنطّع فهو مكروه.

وإذا كان العلم شجرة والعمل ثمرة والشرف للشجرة، فإن الانتفاع لا يحصل إلا بالثمرة، فإن لم تكن ثمرة فلا بقاء للشجرة، «هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»[٣]. فإذا علم الإنسان ثم عمل سُمِّي فقيهًا، قال ﷺ: «مَنْ

---

(١) من كلام ابن المبارك رحمه الله. انظر: شعب الإيمان، (٢/ ٢٧٩)، وتاريخ بغداد، (١٠/ ١٦٠).

(٢) من كلام الفضيل بن عياض رحمه الله. انظر: حلية الأولياء، (٨/ ١١١).

(٣) من كلام علي رضي الله عنه، في كتاب اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي. انظر: تدريب الراوي، (٢/ ٢٦١).

يرد الله به خيراً يُفقهه في الدين»[١].

● **تقديم ما حقه التقديم:**

وتتأكد البداءة بالتوحيد والإيمان من خلال آيات القرآن وصحيح السنة، والتثنية بالفقه والأحكام، كل ذلك على منهج السلف الصالح في التلقي والاستدلال، والعناية بالأخذ بالدليل وطلبه من جهة، وتحديث الناس بما تبلغه عقولهم وتألفه أسماعهم من جهة أخرى، فيكال لكل إنسان بمكيال عقله، ويوزن له بميزان فهمه، لتحصل الفائدة والاعتبار، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

● **العناية بمقاصد الشريعة:**

وذلك بالتفريق بين الضروريات والحاجيات والتحسينيات من أحكامها، ومعرفة رتبها والمقدم منها عند التعارض، والتمييز بين رتب المأمورات والمنهيات، وإدراك مراتب الأدلة والأحكام، ومعرفة مواضع الإجماع والاتفاق، ومواضع السعة والاختلاف، وأسباب الترجيح ونحو ذلك.

● **التأصيل لفقه النوازل:**

يتعين على الدعاة الفقهاء وعلى الفقهاء الدعاة الحرص على التأصيل الشرعي لفقه النوازل؛ ليُنتفع به في أبواب الفقه عامة، وفي مسائل السياسة الشرعية المعاصرة خاصة، وتكوين الملكة الأصولية وبنائها، والتي تهيئ للتعامل مع المسائل المستحدثة واستنباط أحكامها الشرعية.

وقد كانت همة أكابر العلماء إلى العناية بالتأصيل مصروفة، ومن ذلك قول شيخ الإسلام في مجلس للتفقه: «أما بعد: فقد كنا في مجلس التفقه في الدين،

(١) أخرجه البخاري، رقم (٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢)، ومسلم، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

والنظر في مدارك الأحكام الشرعية تصويرًا، وتقريرًا، وتأصيلاً، وتفصيلاً، فوقع الكلام في. . . فأقول لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا مبني على أصل وفصلين. . »[١].

● **دراسة السنن الإلهية في التغيير:**

يجب أن يكون في سُلَّم أولويات طالب العلم دراسة سنن الله في المجتمعات والتغيير، وأسباب التمكين والاستخلاف، وأسباب الضعف والهلاك وسنن الاستبدال، ودراسة واقع الأمة وجوانب الضعف والقوة، وعلى الكبار أن يُوَجِّهوا ناشئة الدعوة وطلبة العلم إلى حمل همّ الإسلام وقضايا المسلمين، على أن هذا النوع من فقه السياسة الشرعية ليس نافلة من العلم؛ بل هو داخل ضمن واجبات الوقت.

● **اعتماد أصل التلقي بالمشافهة ما أمكن سبيل:**

إذ «مَنْ دخل في العلم وحده خرج وحده»[٢]، فيتأكد الحرص على الأخذ عن الأكابر، ثم اعتماد البدائل الأخرى عند التعذر، كالإفادة من الدروس المسجلة أو المصورة، والمدارسة مع المتقدمين من الطلاب، وأساليب التعلم عن بعد. . ونحو ذلك.

● **الحرص على التدرج في سُلَّم التعلم:**

وقد كان السلف يُعَلِّمون ويربُّون بصغار العلم قبل كباره[٣]، ويحرصون على الترقي في العلوم الشرعية كافة بقدر من التوازن بينها، وتأسيس برنامج عملي في طلب العلم، يعنى بالأصول والكليات قبل الفروع والجزئيات، ويهتم

---

(١) مجموع الفتاوى، (٢١/ ٥٣٤).
(٢) الجواهر والدرر، للسخاوي، (١/ ٥٨).
(٣) انظر: صحيح البخاري، (١/ ٣٧).

بعلوم الغايات، ولا يغفل علوم الوسائل والآلات، يبدأ بالتقليد، وينتهي بالاجتهاد والإبداع، ويمر برتبة الاتباع.

● **ضبط مرجعية الكتب والعلماء:**

فالتلقي يجب أن يكون عن الكتب الصحيحة في مناهجها، الصافية في مواردها، المعتمدة على الكتاب والسنة في مجملها، الموافقة لأهل السنة في عقائدها؛ مما ألفه المتقدمون من الأئمة المعتبرين، المشهود لهم بالإمامة والفقه في الدين، والورع والتقوى لربّ العالمين، وكذا ما كان على سننهم من كتب المعاصرين التي عنيت بالتأصيل، وأحسنت في الفهم والتأويل.

وتتأكد العناية بالمختصرات حفظًا وضبطًا، ثم بالشروح استيعابًا وفهمًا، ثم بالمطولات سردًا وجردًا.

● **التقويم والتوثيق:**

ويقصد بهما الاهتمام بمتابعة التقويم العلمي للمتعلم، بالاختبار والتوثيق، والتوجيه إلى الابتكار لا التكرار، وصرف الهمم بعد الاستيعاب إلى التكميل، لا مجرد الإعادة والتطويل، والعناية بالتفهيم بعد التلقين.

● **الالتفاف حول علماء الآخرة:**

بداية من تعلّم توقير العلماء المتبعين، والتأدب معهم، ورعاية حقوقهم بالغيب والشهادة، والتواصي معهم بالحق، والتواصي معهم بالصبر، وانتهاءً بتفويض أمر الملمات والقضايا المهمات إليهم، والوقوف وراءهم، والصدور عن فتاواهم، وجمع القلوب عليهم.

والحذر ممن اتخذوا الدين حرفة وصنعة، لا عقيدة وقربة، يأمرون بالخير فلا يفعلونه، وينهون عن المنكر فينتهكونه، ويعظون فلا يتعظون، يحرفون الكلم عن مواضعه تارة، ويكتمون الحق أخرى، ويلبسون الحق بالباطل ثالثة، ويقولون

الباطل رابعة . . وهكذا، قال ـ تعالىٰ ـ في حقهم : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [**الأعراف** : ١٧٥ - ١٧٦]، ورضي الله عمن قال : «لا يكون الرجل عالمًا حتىٰ لا يحسد مَنْ فوقه، ولا يحتقر مَنْ دونه، ولا يبتغي بعلمه ثمنًا»(١) .

● **التخلي عن الآفات :**

والتنبه إلىٰ خطورة السلبيات والمزالق في طريق طالب العلم كالكبر، والتوقر قبل أوانه، والعزلة عن واقع الأمة والانفراد، والتعصب للرأي أو المذهب، وازدراء المخالف، والسطحية، والولع بالغرائب، والتعالم، والجدال المذموم، والرياء وقوادح الإخلاص، والتصدر قبل التأهل، والاعتناء بالصورة والمظهر دون الحقيقة والجوهر، والميل إلىٰ التعسير وترك التيسير، والحذر من فتنة النساء، فما يئس الشيطان من عبد إلا أتاه من قِبَل النساء، ألا ونقل الخطىٰ إلىٰ المحارم، فإنها حالقة العلم، ومبيدة الفهم .

---

(١) من كلام ابن عمر رضي الله عنهما . انظر : مصنف ابن أبي شيبة، رقم (٣٤٦٢٩)، وسنن الدارمي، رقم (٢٩٠)، وحلية الأولياء، (١ / ٣٠٦) .

الأصل الخامس
التربية والتزكية

إن عملية نقل المعلومات الذهنية من حيز الإدراك الجامد إلىٰ حيز التطبيق العملي الحي، بصورة متدرجة، ومتأنية، ومتكاملة، ومتوازنة، ومستمرة، وبطريقة عميقة جذرية مؤثرة؛ هو ما تعنيه عبارة التربية والتزكية.

فهي في حقيقتها تقريب المدعو من رتبة الكمال البشري بكل وسيلة مشروعة، وعليه فالتربية تصنع الأجيال، وتهيئ الأشبال ليرتقوا ذُرىٰ الكمال، متسلحين بعقائد صحيحة، وأعمال صالحة، وأخلاق زاكية في الدنيا، كما تهيئهم لأنعم نعيم أهل الجنة في الآخرة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣].

وإذا أُطلقت كلمة الدعوة فإنها تشمل في طياتها البلاغ والتربية.

وإذا اجتمعت مع التربية في سياق واحد كانت الدعوة حينئذ البلاغ والتعريف، وكانت التربية البناء والتكوين، فالأُولىٰ في حق الغافلين، والجاهلين، والمعرضين المصرِّين، والثانية في حق المستجيبين المقبلين.

وأهمية التربية والحاجة إليها اعتماداً وتطبيقًا وممارسة في الدعوة إلىٰ الله تظهر في الجوانب الآتية:

● **التربية مهمة الأنبياء:**

لا شك أن الاشتغال بالتربية والتزكية هو طريق الأنبياء والعلماء والمصلحين قاطبة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢].

والتزكية هي التعبير القرآني لمصطلح التربية، وإن كان في معنىٰ التربية من التعاهد والمتابعة للمتربي الصغير ما ليس في التزكية، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ [**الإسراء**: ٢٤]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** ﴾ [**الشعراء**: ١٨]، فكأن التزكية هي ثمرة التربية، ولذا قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى** ﴾ [**الأعلى**: ١٤]، فالتربية من أول أعمال الأنبياء والمرسلين وأولاها، وقد قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [**الأنعام**: ٩٠]. وفي ممارسة النبي ﷺ للتربية مع أصحابه صفحات مشرقة، حق علىٰ كل داعية أن يطالعها مقتديًا ومهتديًا.

والتربية هي التي تحوّل العقيدة المستكنة في الضمائر يقينًا إلىٰ حقيقة سلوكية في الواقع، ترسخ معاني الألوهية في القلب؛ ليصبح يقينًا لا تزلزله محنة وابتلاء، كما لا تغيّره نعمة ورخاء، وهذه التربية تحتاج إلىٰ ترسيخ الأخلاق، وتقويم السلوك، وتعميق الوعي. ولا يتحقق هذا إلا بعمل مستمر دائب، وعزم لا يلين.

وأخيرًا؛ فإنه: «لا يُصلح آخر هذا الأمر إلا ما أصلح أوله»[1].

● **التربية عصمة من الفتن:**

وتتعاظم أهمية التربية لأن الدعوة والدعاة يتعرضون فوق كل أرض وتحت كل سماء للفتن أنواعًا منوعة، بالخير والشر، والرغبة والرهبة، ولا يعصم ـ بإذن الله ـ من فتنة السراء والضراء إلا تربية تعظِّم أمر الآخرة، وتصغِّر شأن الدنيا، وتُؤثر ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ [**الأعلى**: ١٤ – ١٧].

● **التربية وقاية من مفاسد الزمن:**

يتميز هذا الزمان بتقدم مذهل في وسائل التقنية ونقل المعلومات، وسرعة

---

(١) من كلام مالك رحمه الله. انظر: التمهيد، لابن عبد البر، (٢٣/ ١٠).

التواصل والاتصالات، وحقق هذا مصالح معلومة، وواكبها مفاسد مشهورة عبر الفضائيات والشبكات العنكبوتية، فدارت عجلة الفساد سريعة عبر تلك المعابر، واقتحمت حصون الأمة وهددت مَنْ داخلها، كل ذلك يقتضي عناية خاصة بالتربية لتكون حصانة للأمة بعامة وللدعاة بخاصة.

ويتميز هذا الزمن بأزمة ثقة بين أهله، وبين طبقات الناس فيه، حكامًا ومحكومين، رؤساء ومرؤوسين، شيبًا وشبابًا، رجالاً ونساءً، والتربية على حسن الظن، وتقديم الخير، وقبول العذر، وسلامة الصدر حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

ويتميز هذا الزمان بأزمة في القدوة، فلا تتحقق في الأب بالنسبة للولد، ولا في الأم بالنسبة للبنت، ولا في الأستاذ بالنسبة للطالب، ولا في الرأس بالنسبة للمرؤوسين.

والتربية على العمل بالعلم، والتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، والاقتداء والتأسي بالمثل الكامل يحقق حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

ويتميز هذا الزمان بأزمة في الكفاية والإتقان، فيُشتكى من جَلَد الفاجر وعجز الثقة، وتضعف القوة والكفاية، ويخف الصدق والأمانة.

والتربية على إحسان العمل، ورعاية حقوق الله تعالى، وحقوق خلقه، أداءً للأمانة، وقيامًا بالواجب، يمثل حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

● **التربية سبيل التمكين**:

لم تُر الأمة الإسلامية بحالة من الضعف كهذه الحالة اليوم، حين استبدلت شريعتها، واستوردت مناهجها، وسقطت في التبعية لأعدائها. والقيام بواجب التربية والتزكية للنفوس عامة؛ هو في الحقيقة تهيئة للأمة للمطالبة بتحقيق شرع الله في الأرض وتطبيقه، وما أحسن مقولة مَنْ قال: «أقيموا دولة الإسلام في

نفوسكم تقم على أرضكم»[1].

وإن العناية بالتربية لطائفة مخصوصة من الأمة يهيئ لها فئاتٍ فذّةً قادرةً على البذل والعطاء، وتحقيق الآمال، والمرابطة على الثغور العلمية والعملية حماية للدين من كيد الكائدين، وعبث العابثين.

وصفوة القول أن الواجب التربوي هو طريق الخلاص، وأسُّ التمكين.

● **الخلل التربوي هو الداء:**

كثيرًا ما يُرَدُّ الإخفاق في تحقيق الأهداف الدعوية إلى أسباب داخلية.

وعمدة هذه الأسباب عند التحقيق هو الخلل التربوي:

فتارة يكون الخلل بسبب ضعف التربية.

وتارة بسبب عدم تدرج التربية، وقفز الأغرار فوق أكتاف الثقات.

وتارة بسبب عدم تكامل التربية، فتتضخم قضايا وأمور على حساب أمور أخرى لا تقل أهمية.

وتارة أخرى بسبب عدم التوازن بين التربية وأصول ومنطلقات أخرى في الدعوة إلى الله.

وهكذا فالتربية الجادة المتكاملة المنضبطة دعامة تحقيق الأهداف، سواء كانت أهدافًا علميةً أم عمليةً.

وقد عدَّ الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ أمارات العالم، فذكر منها: «أن يكون ممن ربَّاه الشيوخ في ذلك العلم؛ لأخذه عنهم وملازمته لهم، فهو الجدير أن

(١) من كلام الأستاذ/ حسن الهضيبي، رحمه الله، ونقلها عنه علامة الشام الشيخ الألباني رحمه الله، في مقدمة المجلد الثاني من سلسلة الأحاديث الضعيفة، وذلك في سياق حديثه عن «التصفية والتربية».

يتصف بما اتصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السلف الصالح، فأول ذلك ملازمة الصحابة - رضي الله عنهم - لرسول الله ﷺ وأخذهم بأقواله وأفعاله، وصار مثل ذلك أصلاً لمن بعدهم، فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي ﷺ حتى فقهوا ذروة الكمال في الأمور الشرعية»[١].

وتأسيسًا على ما سبق؛ فإن التربية ضرورة دعوية لا مناص منها، وذلك لأمور كثيرة؛ منها:

- **اتساع نطاق العمل الدعوي:**

فقوافل التوبة تؤوب إلى الله تترى، وهي خليط متنافر من سلوكيات تربوية لا يجمع بينها إلا أنها بعيدة عن المنهج السوي، وقد انتقلت إلى الصف الإسلامي بكل ما تحمله من رواسب المسالك الماضية، وإن تصعيدها في مدارج العمل الإسلامي من غير تصفية وتربية جادة لا بد أن ينعكس بآثار وبيلة على العمل بأسره، ما لم يتدارك ذلك بتربية حاسمة ومؤثرة، وإلا يكن هذا؛ فإن حديثي العهد بالجاهلية والمعاصي والثقافات المنحرفة سيقولون كما قيل من قبل: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾ [**الأعراف**: ١٣٨]، أو «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»[٢]، فلا بد من إزالة أوضار الماضي وتأسيس بنيان الحاضر على أسس مستقيمة وقواعد متينة.

أهمية إفراز الصفوف الثانية وتنشئتها، والكفايات البديلة، وصناعة الأجيال:

فلا يصح ولا يصلح الاعتماد - بعد الاتساع - على شخصيات آسرة، وقيادات كبرى فحسب، ذلك أن العمل التربوي يعتمد على المخالطة والاحتكاك

---

(١) الموافقات، للشاطبي، (١/ ٦٦).

(٢) أخرجه أحمد، رقم (٢١٩٤٧)، والترمذي، رقم (٢١٨٠)، وقال: حسن صحيح، وصححه ابن حبان، رقم (٦٧٠٢).

المباشر، ولا يتأتىٰ هذا لتلك القيادات الأولىٰ، فلا بد من همزة الوصل بين الأجيال، وهم أفراد تلك الصفوف الثانية من طلبة العلم والدعاة النابهين الذين يعتمد عليهم في تحريك القلوب، ومتابعة التعليم، والتقويم المستمر، وعليه فلا بد من جهد تربوي ضخم لتربية أدوات التغيير ووسائله من الدعاة والمصلحين.

● **تنوع مجالات الدعوة وتخصصاتها ووسائلها:**

ويحتاج الأمر إلىٰ مَنْ يسد الثغرات في سائر المجالات من الطاقات والكفايات، ولا يتأتىٰ هذا إلا بوجود الإنتاج التربوي المتين الغزير الذي يوصف بالرجولة والصدق، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ [**الأحزاب**: ٢٣]، فإن مجالات كثيرة قد أشرعت أبوابها تنتظر مَنْ يلجها ويشارك فيها، ويضرب للدعوة فيها بسهم، وهذا يستلزم اعتماد التربية وسيلة وغاية في وقت واحد، مع التنبه إلىٰ خطورة الاستعجال في التجميع علىٰ حساب التربية المنضبطة.

ومنهج التربية والتزكية عند أهل السنة والجماعة يقوم على المعالم الآتية:

● **الربانية:**

إن الربانية هي تحقق بتلك الصلة الوثيقة بالله تعالىٰ، أداءً للفرائض، واجتنابًا للمحارم، واستدامة للذكر، وعناية بالشكر، وتحليًّا بالصبر، وإيثاراً للإيثار، واتشاحًا باليقين، وتلذذاً بالصيام، وتنعمًا بالقيام، وتربية بصغار العلم قبل كباره، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**﴾ [**آل عمران**: ٧٩]، أولئك الربانيون، فهم العلماء العاملون، والحكماء المربون، والفقهاء المعلمون[١].

إن سياج الربانية يقيم في قلب المتربي فرقانًا بين الحق والباطل، وينشئ حاجزاً بينه وبين مضلات الفتن، ويضبط السلوك ويقيم الجوارح علىٰ رعاية

---

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ، (١/ ٦٣)، تفسير الطبري، (٣/ ٣٢٧).

السنن والهدي الظاهر، وحسن السمت، وملازمة الأدب، وإذا كان الإسلام هو الحل لمشكلات البشرية، فإن الربانيين هم الحل لمعظم مشكلات الدعوة الإسلامية.

● **الوسطية:**

فكما أن أهل السنة وسط بين فرق الأمة في مسائل الاعتقاد، فهم أيضًا وسط في باب التربية والسلوك بين طرفي الإفراط والتفريط.

وهم وسط في باب الإخلاص بين المرائين والملامية(١).

وهم وسط بين المشتغلين بإقامة العبادات القلبية دون العملية كبعض الصوفية، والمشتغلين بإقامة رسوم العبادات الظاهرة فقط كبعض المتفقهة، فكانوا أهل العبادة الظاهرة والباطنة(٢).

وهم وسط بين مَنْ يريد مِن الله ولا يريد الله، وبين مَنْ يريد الله ولا يريد من الله، فهم يريدون رضا الله وجنته، وأما غيرهم فمنهم مَنْ يريد رضا الله ولا يريد جنته، كحال كثير من المتصوفة، ومنهم مَنْ يريد نعيم الجنة المخلوق، ولا يريد رضا الله كحال كثير من المتكلمة(٣).

وهم وسط بين أصحاب التفريط والاستهتار والإسراف والمبالغة في المتع والترف، وأصحاب الإفراط في التصوف والرهبانية والتشديد على النفس وتعذيب البدن.. فلا إسراف في تنعيم الأبدان ولا تنطع وحرمان.

● **السلفية:**

ومنهج التربية والتزكية يقوم على موافقة نصوص الشارع في السلوك لفظًا

---

(١) المراءون يعملون الصالحات بقصد رؤية الناس لهم وطلب مدحهم، وأما الملامية فيفعلون ما يلامون عليه من المخالفات ويقولون: نحن متبعون في الباطن. انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية، (٣٥/ ١٦٤)، ومدارج السالكين، لابن القيم، (٣/ ١٧٧، ١٧٨).

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (٣/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) انظر: مدارج السالكين، (٢/ ٨٢).

ومعنىٰ، فليس أهل السنة من الذين وافقوا النصوص في اللفظ دون المعنىٰ كالباطنية، وليسوا كالذين تكلموا في المعنىٰ بألفاظ مبتدعة ككثير من الصوفية، وليسوا كالذين خالفوا النصوص لفظًا ومعنىٰ كالفلاسفة والملاحدة، وإنما هم ـ بحمد الله ـ أتباع السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين الذين أقاموا معالم السلوك وتزكية النفوس، وتحققوا بالمعاني وتمسكوا بالمباني، علمًا وحالاً، وعملاً ومقالاً، فلا يشتبه لديهم الزهد الشرعي بالعجز والكسل، ولا التوكل بالتواكل، ولا الورع الشرعي بالبدعي.

● **الإيجابية:**

وهي تعني المبادرة العملية علىٰ وجه السداد والمقاربة، لا المثالية أو السلبية، فهي منهج الواقعية الإيجابية، والتي تعني القصد في الأمر كله؛ ومراعاة أحوال المكلفين، وتحقيق الملاءمة والمواءمة بين طبيعة هذا الدين وطبيعة المكلفين، وفي الحديث: «سدِّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا!»[(١)].

فأولىٰ القربات الفرائض المكتوبات، وأما تكليف النوافل المندوبات فبحسب الوسع والطاقة، و«أحب الأعمال إلىٰ الله أدومها وإن قل»[(٢)]، و«المؤمن يقول قليلاً ويعمل كثيرًا»[(٣)]، والمثل الكامل في التربية والسلوك هو رسول الله ﷺ، أطهر الخلق نفسًا وأقومهم منهجًا، كما قال ﷺ: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[(٤)].

قال الحسن البصري: «إن هذا الدين دين واصب، وإنه مَنْ لا يصبر عليه يدعه، وإن الحق ثقيل، وإن الإنسان ضعيف، وكان يقال: ليأخذ أحدكم من

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٦٤٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري، رقم (٦٤٦٤)، ومسلم، رقم (٧٨٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) من كلام الأوزاعي رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، (٧/ ١٢٥).
(٤) أخرجه البخاري، رقم (٢٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

العمل ما يطيق؛ فإنه لا يدري ما قدر أجله، وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف، وكلَّف نفسه ما لا يطيق؛ أوشك أن يسيِّب ذلك كله، حتىٰ لعله لا يقيم الفريضة، وإذا ركب بنفسه التيسير والتخفيف، وكلَّف نفسه ما تطيق كان أكيس، وأمنعها من العدو، وكان يقال: شر السير الحقحقة[١]»[٢].

ومن سمات الإيجابية: الواقعية في إدراك أن تفاوت القدرات إنما هو بسبب تنوع المواهب واختلاف الاستعدادات؛ ذلك أن الله قسم الأعمال والأخلاق كما قسم الأموال والأرزاق، وعلىٰ كلٍّ أن يرضىٰ بما فُتح له فيه، وأفضل الأعمال بعد الفرائض يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه.

قال شيخ الإسلام: «وإذا ازدحمت شُعب الإيمان قُدّم ما كان أرضىٰ لله وهو عليه أقدر، فقد يكون علىٰ المفضول أقدر منه علىٰ الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له، وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقًا إذا كان متعذرًا في حقه أو متعسرًا يفوته ما هو أفضل له وأنفع»[٣].

ومن الناس مَنْ فتح الله عليه في باب دون باب، ومنهم مَنْ فتح الله عليه في كل باب، وضرب له في كل خير بسهم، وما علىٰ مَنْ دُعي يوم القيامة من أبواب الجنة الثمانية من حرج، وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء.

وفي الجملة؛ فإن التربية أصل ضخم وأساس متين، لا يتم بدونه تغيير، ولا تنجح بدونه دعوة، وليس له غاية ينتهي عندها، ولا يستغني عنها الكبير فضلاً عن الصغير، ولا المنتهي فضلاً عن المبتدي.

---

(١) الحقحقة: شدة السير وأتعبه للظهر. انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ٢٤٥.
(٢) الزهد، لابن المبارك، ص ٤٦٨.
(٣) مجموع الفتاوىٰ، (٧/ ٦٥١، ٦٥٢).

● وللتربية أنواع متعددة :

فتربية علمية تؤهل القادرين ، وتبني ملكات الفهم ، وتضبط قواعد العلم ، قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

وأخرىٰ وجدانية تعنىٰ بالمشاعر ، وترعىٰ الخواطر ، وتوقظ الضمائر ، قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

وثالثة جهادية تشعل حماس الصادقين ، وتهيئ للسعي إلىٰ التمكين ، وتدفع عن ديار المسلمين ، قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

ورابعة إيمانية تصون الإيمان أن يبلىٰ ، واليقين أن يذوي ، والفرد أن يتردىٰ ، قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ [البقرة : ١٣٧] .

* وللتربية مستويات ومجالات ؛ منها ما يوجه للأمة بعامة ، ومنها ما يوجه لقاعدة الدعوة وقطاع الصحوة بخاصة ، وأخص من ذلك تربية القادة وتأهيلهم للريادة .

ووسائلها جميعًا أعم من الدرس والموعظة والصحبة والرحلة ، ولكن جوهرها القدوة !

* وكما أن لكل عمل عظيم آفات ، فمن أخطر آفات التربية : التهوين من شأن العقيدة ، وضعف التربية علىٰ معانيها ، والتربية علىٰ التقليد والتعصب لراية أو شعار دون الإسلام ، والمغالاة في النظرة للتربية الخاصة علىٰ حساب البلاغ المبيِّن للدين ، والاهتمام بالشكل دون المضمون ، والعناية بالظاهر علىٰ حساب الباطن ، وفقدان التوازن بين أنواع التربية ومجالاتها ، واتخاذ الترخص الجافي منهجًا في مسائل الفقه والأحكام ، أو اعتماد التنطع الغالي منهجًا في مسائل التوحيد والإيمان ، وكما أن التهور والاندفاع اليائس يعكس خللاً تربويًا ، فالتثاقل والتباطؤ ينبئ عن عجز وكسل ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم .

الأصل السادس
الوعي والبصيرة بالواقع

إن الوعي والبصيرة بالواقع يعني حالة من اليقظة تقتضي فهم الأشياء ومدلولاتها، وتجميع عناصرها السابقة وربطها في محاولة لإدراك الكل، كما يعني استعداداً ذهنيًّا لاستيعاب الأحداث، والتفاعل معها بشكل صحيح، وهذا الوعي يستدعي بحثًا في العوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوىٰ المهيمنة علىٰ الدول، والأفكار والمكايد الموجهة ضد الأمة، والسبل المشروعة لاستبانة سبيل المجرمين، وحماية الدعوة من كيد المبطلين، وكما أن العلم بالخير سبب إلىٰ فعله؛ فإن العلم بالشر سبب إلىٰ منعه.

وعليه؛ فإن الدعوة إلىٰ الله لا غنىٰ بها عن إدراك الواقع وفهم علاقاته، واستيعاب أحداثه، كما أنه لا بد من معرفة الحكم الشرعي وتحصيل آلاته، ومعرفة طرق استثماره واستنباطه.

ولا شك أن في نهي المؤمنين عن سب آلهة المشركين، ونهي النبي ﷺ عن قتل المنافقين، وعدوله عن هدم الكعبة وإعادة بنائها علىٰ قواعد إبراهيم لما يترتب علىٰ ذلك كله من المفسدة العظمىٰ في الدين، كما أن إمضاءه ﷺ لصلح الحديبية بشروطه، وإعطاءه بعض المؤلفة قلوبهم العطايا العظيمة من الغنائم، ومداراته لبعض القوم لما يترتب علىٰ ذلك كله من المصلحة العظمىٰ في الدين - في ذلك كله أكبر دليل علىٰ أهمية معرفة الواقع في الخلق، والواجب في الشرع سواءً بسواء.

ومن مقاصد انطلاق الدعوة من إدراك الواقع:

- **تحقيق البصيرة في الدعوة إلى الله:**

إن الداعية بالضرورة يعيش في واقع ما، يُمتحن فيه وبه، ويُطالب شرعًا بتحصيل البصيرة في دعوته، وهذا إنما يتأتىٰ بمعرفة واقع المجتمعات وأفرادها

وهيئاتها ومؤسساتها، كما يتحقق بالاطلاع على وسائل العصر وأساليبه المتجددة التي تخدم الدعوة وتدفع بها قدمًا للأمام.

وامتلاك الدعوة لرؤية صحيحة واضحة عن مجتمعاتها، ومشكلاتها وكيفية التعامل معها وأساليب علاجها؛ تحول دون الفوضى والتخبط، وتمكِّن الدعاة من اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، ووضع التخطيط الملائم للوضع القائم، وتجعل المواصلة والاستمرار عملاً ممكنًا.

فمن الخطأ البيِّن الاستعاضة عن العلم والوعي بالواقع بأمر آخر ولو كان هذا الأمر هو بذل النفس والنفيس؛ لأن البذل لا ينتج ثمرته، ولا يعطي نتيجته إلا إذا استوفى شروط إنتاجه، وامتنعت موانعه.

فمَنْ لم يعرف الواقع في الخلق، والواجب في الحق؛ لم يعرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل، ومَنْ عبد الله بغير علم كان ما يُفسد أكثر مما يصلح.

● **تسديد الفتاوى في النوازل:**

ولا شك أن ساحة الدعوة الإسلامية ملأى بنوازل عامة، وقد اضطربت بشأنها الفتوى كثيراً، ويرجع هذا الاضطراب في الغالب إلى تفاوت في توصيف الواقع وتكييفه.

وقد أشار أهل العلم سلفًا وخلفًا إلى أهمية فهم واقع المسألة، مع فهم النصوص الشرعية المتعلقة بها، وفقه تنزيل النصوص على الواقع، وبهذين الركنين يتم تسديد الفتوى وتنضبط الأحكام فلا يبقى مجال لطاعن أو مخالف، ولا تزال فتاوى كثير من علمائنا المتقدمين - رحمهم الله - حية وفعّالة في عالم اليوم، وما ذاك إلا لأنها جمعت بين ركني الفتوى.

يقول ابن القيم: «لا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علمًا.

النوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ﷺ»[1].

وعلاوة على ما سبق؛ فإن تجاهل الواقع يفوِّت إعمال قاعدة سد الذرائع؛ فيقع كثير من الزلل بسبب عدم النظر في المآلات، كما يؤدي إلى تقديم الداعية للإسلام في إطار نظري مجرد عن واقع الناس الذي يحيونه، فلربما عالج الداعي مشكلة لا تمس حاجة إلى علاجها، وأغفل أخرى هي أساس انحراف في مجتمعه، وإنه ليلحظ في دعوات الأنبياء - عليهم السلام - أنهم كانوا يضيفون إلى دعوة التوحيد الدعوة إلى تصحيح انحرافات المجتمعات الأخلاقية والاقتصادية والسياسية. . . وغير ذلك، كل بحسب ما كان في واقعه وانتشر في مجتمعه، فموسى - عليه السلام - يحارب الطغيان السياسي، وشعيب - عليه السلام - يحارب الفساد الاقتصادي، ولوط - عليه السلام - يحارب الانحراف الأخلاقي. . . وهكذا، كل هذا مع النظر في المآلات ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، وسيرة النبي ﷺ في الدعوة تنطق بجميع ذلك.

● **استبانة سبيل المجرمين، وتعرية مناهج المنحرفين:**

وهذا منهج قرآني نبوي سديد؛ فالقرآن فاضت آياته بفضح المنافقين، وكشف كيد الكائدين من اليهود والنصارى، ووقائع السيرة وأحاديث السنة قد تواتر فيها هذا المعنى، والدعوة وهي تجلي سبيل المؤمنين لا غنى لها - من خلال

(١) إعلام الموقعين، (١ / ١٢٨).

إدراك الواقع - عن استبانة سبيل المجرمين، فتنهى عنها، وتُسقط الثقة بها، بالتصريح تارة، وبالتلميح أخرى، وهذا كله مما يرفع وعي الأمة وينفي عنها الغثائية المذمومة، ويحقق الهوية الإسلامية، والخيرية الشرعية.

● **تحصيل التكامل والتوازن التربوي:**

إن الوعي بالواقع سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا لبنة أساسية في بناء الشخصية المسلمة، في هذا الزمان وفي كل زمان، ولا يسوغ بحال أن يربى المسلم علميًّا وفكريًّا ويهمل في الجوانب العملية والواقعية، وعن هذا الخلل التربوي تنشأ آفات علمية وعملية معًا؛ فمن انشغال فكر المسلم بقضايا ليست مطروحة تحت سمع الزمان والمكان وبصرهما، واستدعاء قضايا ومشكلات تاريخية انقضت ظروفها واضمحلت أصولها، إلى حجز العقل المسلم وسد منابع الثقافة عليه، إلى تعويق السعي للتمكين، إلى بقاء الأمة في عزلة عن شؤونها السياسية والاجتماعية، وسقوطها في هوة التبعية الاقتصادية والتقنية، وصدق الله - تعالى - حيث يقول: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ [**الشورى**: ٣٠].

● **التفاعل الصحيح مع قضايا الدعوة:**

إن حسن الفهم والإدراك لما يجري يمكّن من الاستشراف المبكر للأحداث، والتفاعل الإيجابي السريع مع مستجدات الواقع ومتطلبات الدعوة، ويعين على أخذ الأهبة، والتوقي من الفتن والمعاطب، كما أن إدراك الداعية للواقع بأبعاده الكاملة يملؤه حماسًا وقوة في حمل قضايا الدعوة «بهمة عالية، وعزم قوي لا يثنيه عنه كثرة خصومه مهما تكالبت عليه قوى الشر؛ إذ لا يعتبرها في جنب الله إلا كالفراش»[1].

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم، للشيخ عبد الرحمن الدوسري، (١ / ٧٢).

فلا تنبغي للدعاة راحة إلا في الجنة، «مذ تيقظوا ما ناموا، ومذ سلكوا ما وقفوا، فهمُّهم صعود وترقٍّ، كلما عبروا مقامًا إلىٰ مقام رأوا نقص ما هم فيه فاستغفروا»[١].

لم يتركوا بابًا لنصرة قضيتهم إلا ولجوه، ولا رأوا عدوًّا لدعوتهم إلا واجهوه، ينصرون الحق وينصحون الخلق.

وفي مقابل ما ذكر من أهمية هذا الوعي ونتائج إدراكه؛ فإن المبالغة في الاشتغال به وتضخيم أهميته، وتعظيم أثره في تغير الفتوى، والمغالاة في تناوله له سلبيات ومحاذير؛ من أهمها ما يأتي:

- **إغفال التأصيل الشرعي:**

وذلك باعتبار أن الواقع هو الأصل تارة، وبإغفال المنهج الصحيح في تلقي الأخبار والحكم علىٰ الرجال والأحداث تارة، وبفقدان الاعتدال والتوازن بين فقه النص والواقع تارة ثالثة، وباعتساف النص الشرعي وسوء تأويله وتطويعه ليتوافق مع الواقع تارة أخيرة.

- **الافتتان بالبهرج والزيف:**

سواء كان هذا بشخصيات كافرة، أو بأفكار منحرفة، أو بطوائف ضالة، أو بأساليب ووسائل غير شرعية، وما يصحب ذلك من اختلال في ميزان الحب في الله والبغض في الله، وما قد يرافقه من التعويل علىٰ الأسباب والوسائل المادية، وإغفال الجوانب الإيمانية والمعنوية.

- **الجنوح بالدعوة إلى الله:**

وذلك بأن تخرج عن مسارها الأصيل، فتأخذ طابع الكفاح السياسي، أو الثورة الوطنية، أو المعارك الحزبية، مع غلبة الخطاب به، والاقتصار عليه،

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، ص ٣٥٥.

وذبول الجانب الاعتقادي التربوي العلمي الرصين، واضمحلال جانب التقرب إلىٰ الله ـ عز وجل ـ بعبادة الدعوة وسيلة ومقصداً؛ مما قد يتيح الفرصة للهجوم علىٰ الإسلام أو تشويه الدعوة.

● **الانعزال عن الأمة بحجة تخلف العامة عن الوعي المطلوب:**

فإدراك الواقع المطلوب هو التدبر في الأحداث والمواقف والمستجدات؛ لينشأ عن ذلك عمل رشيد في حقل الدعوة، فإذا عاد الوعي بعزلة ومفارقة ومفاصلة بين الداعي وأمته، وبين الدعاة والعلماء وجمهرة المسلمين، فقد أتىٰ هذا الوعي بنقيض مقصوده، وكرَّ الفرع علىٰ أصله بالإبطال، وذلك من أبطل الباطل وأخطر الأضرار، فلا بد من الاقتصاد في ذلك كله ولزوم منهج العدل والتوسط.

● **التردي في النظرة التآمرية:**

وذلك بتسويغ الهزائم والأخطاء، وإلقاء اللائمة علىٰ الآخرين والأعداء، والسقوط في التقدير الموهوم لقوة الخصوم، والمبالغة في تقدير إمكاناتهم، والتهويل من شأنهم، مع ما يصحب ذلك من التهوين من إمكانات الأمة ومقدَّراتها، والتوهين لعزائم المخلصين.

ولعل جميع ما سبق إنما يأتي من جرَّاء الغفلة عن قدر الله الغالب في نصرة هذا الدين، وضعف روح التوكل واليقين، والذهول عن سنن الله ـ تعالىٰ ـ في تمكين المؤمنين وإهلاك الظالمين.

● **الاستغراق في الوعي بالواقع:**

بحيث يترتب علىٰ ذلك إغفال لطلب العلم الواجب، والتربية الإيمانية، والجوانب السلوكية، وضعف التقرب إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بالعبادات القلبية والعملية، وهذا من أخطر السلبيات إن لم يكن أخطرها.

الأصل السابع
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم شعائر الدين، وهو ـ بعد التوحيد ـ الواجب الذي بعث الله به النبيين أجمعين، وهو سبيل صيانة الحرمات، وأمن المجتمعات، وبإقامته ـ على وجه الصواب ـ استحقت هذه الأمة أن تكون خير أمة أخرجت للناس، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [**آل عمران**: ١١٠]، وبإضاعته استحق بنو إسرائيل اللعنة على لسان الأنبياء، قال ـ تعالى ـ: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [**المائدة**: ٧٨ - ٧٩].

وبأدائه على وجهه يخرج المكلف من عهدة التكليف، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [**الأعراف**: ١٦٤]، وتحصل الشهادة على الخلق، قال مالك: «وينبغي للناس أن يأمروا بطاعة الله، فإن عصوا كانوا شهوداً على مَنْ عصاه»[(١)].

فهو جهاد الدعوة الدائم، ودورها الذي لا قيام للدين بدونه، ولا اعتصام بحبل الله إلا على هداه، ولا تحقق لتمام الولاية بين المؤمنين إلا به، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [**التوبة**: ٧١].

وكثير من أرباب الدعوة في واقعنا المعاصر ـ إلا من رحم الله ـ ناكلون عنه لشبهات أو لشهوات، فضيعوا الواجب وأغرقوا سفينة المجتمع، ومنهم عاملون

(١) الجامع، لابن أبي زيد القيرواني، ص ١٥٦.

به من غير فقه ولا تبصر، فأساؤوا من حيث أرادوا الإحسان، وأفسدوا من حيث أرادوا الإصلاح.

والعاملون الموفقون وسط بين المفرطين المتهاونين والعاملين غير المتفقهين، يعلمون الحق، ويرحمون الخلق؛ فهم خير الناس للناس.

فأما الناكلون عنه فيقال لهم: ليس الاشتغال بهذه الفريضة ترقيعًا لبعض مظاهر الفساد، وتحصيلاً لمصالح جزئية لا قيمة لها، بل هو من أجلِّ مهام سيد النبيين ﷺ، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [**الأعراف**: ١٥٧].

وفي المقابل لا يسبب القيام بهذه الشعيرة ـ بالضرورة ـ فتنة ومحنة تعوق العمل الإسلامي، وتعجل بالمصادمة مع الأنظمة والحكومات، ولا يمكن أن يكون الإنكار ـ بعلم، وحلم، وصبر ـ سببًا لنفرة الناس من الداعية والدعوة.

ومصلحة الداعي والدعوة معًا في اتباع القرآن وأوامره، والسنة وأحكامها، ومن ذلك القيام بهذا الواجب المفروض؛ إذ الفلاح في الدنيا والآخرة مقرون بالقيام بهذا الواجب ولا بد، قال ـ سبحانه ـ: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [**آل عمران**: ١٠٤]، وعطف الأمر والنهي علىٰ الدعوة إلىٰ الخير؛ هو من باب عطف الخاص علىٰ العام لإظهار فضله الخاص والتنويه بشرفه.

قال شيخ الإسلام: «الدعوة إلىٰ الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به، والنهي عن كل ما نهىٰ الله عنه، وهذا هو الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر»[١]، وفي الحديث: «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلىٰ إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، (١٥ / ١٦١).

(٢) أخرجه الحاكم، رقم (٤٨٨٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأما المتسرّعون فيقال لهم: إنه لا إنكار في موارد الاجتهاد، وإنه يجب الاقتصار في التغيير باليد والإنكار باللسان على قدر الحاجة من غير تجاوز، وينبغي ترك الإنكار والاحتساب، واستعمال الحكمة والصبر إذا أدى الإنكار إلى مفسدة أكبر وفتنة أشد.

والأصل أن هذه الفريضة تجب على الكفاية، وتتعين في مواضع، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [**آل عمران**: ١٠٤].

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه؛ بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن، ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضًا كذلك، فإذا لم يقم به مَنْ يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته»(١).

والأصل في هذه الفريضة أن تجب على الفور، إلا ما استثني، قال القرافي ـ رحمه الله ـ: «قال العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الفور إجماعًا، فمَنْ أمكنه أن يأمر بمعروف وجب عليه»(٢).

وكل منكر موجود في الحال، ظاهر للمحتسب بغير تجسس، معلوم كونه منكرًا بغير اجتهاد، فالإنكار فيه واجب(٣)، وحسمه بما ينحسم به حتم لازم؛ بما لا يؤدي إلى مفسدة أكبر أو تفويت مصلحة أعظم(٤).

ومما ينبغي التأكيد عليه أن الوجوب في هذه الشعيرة مرتبط بتحقق القدرة وغلبة المصلحة، فيسقط بالعجز، لقوله ﷺ: «مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده،

---

(١) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ١٢٦).
(٢) الفروق، للقرافي، (٤/ ٢٥٧).
(٣) انظر: أعلام الموقعين، (٣/ ٢٨٨)، والأحكام السلطانية، للماوردي، ص ٢٥٣.
(٤) انظر: أعلام الموقعين، (٣/ ٤، ٥)، وتفسير ابن كثير، (٢/ ١٦٤).

فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١).

كما يسقط بخوف الضرر المحقق، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - مرفوعًا: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتىٰ يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟! فإذا لقّن الله عبدًا حجته قال: يا ربِّ! رجوتك وفَرَقْتُ من الناس»(٢)، وقد اعتبر ذلك الفَرَق والخوف حجة يدلي بها العبد عند ربه.

وتقدير المصالح والمفاسد العامة في هذا الباب والترجيح بينها عند التعارض إنما هو بميزان الشريعة، وهو موكول إلىٰ أهل العلم الذين يوثق بهم فقهًا ووعيًا، وديانة وورعًا.

وإن تقديم الأهم علىٰ المهم، والتدرج في مراتب الإنكار، والنظر إلىٰ المآلات في هذا الباب، وزوال المنكر بالكلية أو تخفيفه؛ مطلوب شرعًا.

وأما زواله مع زوال مثله من المعروف أو حصول مثله من المنكر فموضع اجتهاد ونظر.

وأما زوال المنكر وحصول ما هو أكبر منه، أو فوات ما هو أكبر من المعروف؛ فممنوع شرعًا.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات، فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة علىٰ المفسدة؛ إذ بهذا بُعثت الرسل، وأُنزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، وحيث كانت المفسدة للأمر والنهي أعظم من مصلحته؛ لم يكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرِك واجب، وفُعِل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله، وليس عليه هداهم»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه، رقم (٤٠١٧)، والبيهقي في الشعب، رقم (٧٥٧٤)، بسند صحيح.

(٣) الاستقامة، لابن تيمية، (٢/ ٢٢١).

وعند تزاحم المصالح والمفاسد في أمر ما، أو تعارض المصالح، أو تعارض المفاسد؛ يُطلب الترجيح، «فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقُدِّم أوكدهما؛ لم يكن الآخر في هذه الحال واجبًا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة. وكذلك إذا اجتمع محرَّمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما؛ لم يكن فعل الأدنىٰ في هذه الحال محرَّمًا في الحقيقة، وإن سُمِّي ذلك ترك واجب، وسُمِّي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق؛ لم يضر»[1].

ومع أن هذا الواجب من فرائض الوقت المضاعة، ومن حرم الإسلام المهدرة؛ فإن حاجة الدعوة اليوم إلىٰ التأليف والمداراة، وتصحيح المفاهيم، واستفاضة البلاغ، وإقامة الحجة، وبناء القاعدة الصلبة، وإنكار المنكرات العامة في الأمة بعلم وحلم؛ أمسُّ من حاجتها إلىٰ قصر الاحتساب علىٰ طائفة من المنكرات الجزئية، في الوقت الذي تندرس فيه معالم الدين الكلية، وتلتبس أصوله ومعاقده الكبرىٰ.

فأما من حيث الوجوب فليشمل الإنكار كل منكر، وأما من حيث الاشتغال بالتغيير فكل منكر بحسبه، وكل منكر بقدره، و«التكليف الشرعي مشروط بالممكن من العلم والقدرة»[2].

ولا يخفىٰ أن هذا الواجب يشمل التغيير بمراتبه الثلاث: باليد، واللسان، والقلب.

فأما مرتبة التغيير بالقلب فلا تسقط أبدًا؛ إذ هي الأصل لتغيير المنكر بمراتبه المختلفة، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل، وأهميتها ترجع إلىٰ كونها سبب حفظ الإيمان في القلوب وصيانته من أن يذوب، فهي فرقان ما بين المؤمن والمنافق.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، (٢٠ / ٥٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ، (١٠ / ٣٤٤).

وأما تغيير اللسان؛ فلكل أحد في مواضع الإجماع والمسائل الجليات، ويختص أهل العلم بما وراء ذلك من مواطن الخلاف ودقائق المنكرات، ولا تسقط هذه الرتبة لهيبة أو لوم أو أذى خفيف، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وأما التغيير والإنكار باليد فمشروط بحصول القدرة(١)، وألا يزول المنكر إلا باليد(٢)، وألا يزول بيد فاعله لامتناعه ونحوه(٣)، وألا يؤدي التغيير باليد إلى إثارة فتنة، وألا تقع بسببه مفسدة أو منكر أعظم(٤)، وألا يترتب عليه من الضرر ما لا يُحتمل في النفس أو الغير، وأن يقتصر في التغيير على القدر المحتاج إليه من غير زيادة، وتقدير ذلك عمليًّا من أمور الاجتهاد التي توكل لأهله دون غيرهم.

ويتعين التدرج في الإنكار، فمع تغيير القلب يبدأ بالتعريف، ثم الوعظ والتخويف، ثم التقريع والتعنيف، ثم التغيير باليد، على أن الغالب في زمن الاستضعاف وغربة الدين عند الاحتساب باليد استنفار العامة ضد الدعاة، والتشويش على قضية الدعوة برمتها، وإيجاد ذرائع البطش والتنكيل بالعاملين كافة، مع استنزاف كثير من الجهود، وتبديد كثير من الطاقات في مواجهات على حساب التربية والتصفية والبلاغ، وهذا يؤكد أهمية الإحاطة بفقه النص وظروف الواقع وملابساته عند معالجة هذا الأمر الخطير.

وبقدر كثرة المنكرات وتعددها تكثر وسائل الإنكار والتغيير، وتتنوع مجالات وآليات النصح والتعبير، وذلك عبر مختلف وسائل الإعلام والتأثير؛ المكتوبة والمسموعة والمرئية.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، ص ١٢٦.
(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح، (١ / ٢١٩).
(٣) التشريع الجنائي، لعبد القادر عودة، (١ / ٥٠٦).
(٤) الحسبة، لابن تيمية، ص ٢٥.

الأصل الثامن
الجهـاد

إن الجـهـاد ذروة سنام الإسـلام، وأصل عـظيم من أصـول الدعـوة إلىٰ الله تعالىٰ، وبيعة ماضية في أعناق المؤمنين، وهو الصفقة الرابحة في الدنيا والآخرة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، وقال ﷺ: «تكفّل الله لمن جاهد في سبيله؛ لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته، بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلىٰ مسكنه الذي خرج منه، مع ما نال من أجر أو غنيمة»[(١)].

والجهاد من أعظم وسائل إزالة العقبات وفتح الطريق أمام الدعوة والدعاة؛ فإن أعداء الإسلام وشريعته لن يتنازلوا ـ في الغالب ـ عما اغتصبوه من الأوطان والحقوق إلا إذا حُملوا عليه حملاً، وإنه مهما قيل في تحقيق العمل السياسي لبعض المصالح، أو دفعه لبعض المفاسد؛ فإن طريق تحرير المقدسات والأوطان وإقامة سلطان الشريعة يمر ـ ولا بد ـ ببذل الأنفس والأموال في سبيل الله، ليس له غاية ينتهي إليها إلا إحدىٰ الحسنيين النصر أو الشهادة.

ولا يخفىٰ أن المعنىٰ العام للجهاد يتناول استفراغ كل وسع، وبذل كل جهد في نصرة هذا الدين، سواء كان بالسيف والسنان أم بالحجة والبيان، وبالدعوة والإرشاد، وفي الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٣١٢٣)، ومسلم، رقم (١٨٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد، رقم (١٨٣٤٩، ١٨٣٥١)، والنسائي، رقم (٤٢٠٩)، عن طارق بن شهاب رضي الله عنه، بسند صحيح.

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة من وسائل دعوة المؤمنين؛ فإن الجهاد وسيلة من وسائل الدفع عن المؤمنين، وطلب دعوة عموم الكفار والمشركين.

والجهاد بالنفس والمال ماض إلى يوم القيامة، وإنكار وجوبه إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وادعاء نسخه أو تخصيصه بجهاد الكلمة بدعة في الدين وضلالة، ونقص في العقل وسفاهة، وغفلة عن الواقع وجهالة.

والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال لدعوة الناس إلى الإسلام وإزالة جميع الحواجز والعوائق التي تحول دون الدخول فيه فرض كفاية على مجموع الأمة، وقد يتعين في مواضع؛ منها: تعيين الإمام لشخص بعينه، وإذا استنفر الإمام أهل محلة، وعند حضور القتال إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان، ولاستنقاذ أسارى المسلمين من أيدي الكفار، ونحو ذلك.

والخروج للجهاد في سبيل الله لطلب العدو يُطلب فيه إذن الإمام - وجوبًا أو استحبابًا -، فلا يُفتات عليه، قال ابن قدامة: «وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك»[1]، فإن خلا عنه زمان أو مكان، فيطلب إذن أهل الحل والعقد من كل صاحب منهج علمي سديد، وعمل مبارك رشيد، ومَنْ ناصرهم من ذوي الشوكة والسلطان.

وأما حين يتغلب عدو على بلد من بلاد الإسلام فيقتطعه ويستلبه، أو يقهر أهله على الخضوع لغير شرع الله، فعندها يتعين الدفع على كل قادر حاضر من أهل تلك الدار بإطلاق، ثم على مَنْ يليهم من المسلمين في الآفاق؛ حتى تُحمى بيضة المسلمين، وتحفظ حوزة الدين.

وهدف الجهاد الأعظم: هداية الناس للإيمان، وتعبيدهم للواحد الديَّان،

(١) المغني، لابن قدامة، (١٠ / ٣٦٨).

وإخراجهم من عبودية العباد إلىٰ عبادة ربّ العباد، وإخلاء العالم من الفساد، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وفي الحديث: «بُعثت بين يدي الساعة بالسيف حتىٰ يعبد الله ـ تعالىٰ ـ وحده لا شريك له»(١).

ويدخل في هذا الهدف: رد اعتداء المعتدين، وإزالة الفتنة عن المدعوِّين، وإرهاب أعداء الدين، وتقوية دولة المسلمين، وفضح المنافقين، وتطهير الصف من رجسهم وإفكهم، مع تمحيص المؤمنين، وتربيتهم علىٰ الصبر والثبات، وغير ذلك من المنح الإلهية والنفحات الربانية.

وترك الجهاد والنكوص عنه طريق الهلكة والخسران في الدنيا والآخرة، وسبب الذل والهوان، ومدعاة البلاء والعذاب، ومضيعة للمصالح العامة للأمة.

ولما كان الجهاد في سبيل الله بهذه المنزلة؛ فإن السعي في ترشيده وتسديده ونصح أهله، وضبط أحكامه، وتقدير مصالحه، والفصل بين ثوابته التي لا يجوز التنازل عنها، وبين موارد الاجتهاد التي لا مشاحة فيها؛ لهو أمر في غاية الأهمية والخطورة، وبخاصة إذا أضيف إلىٰ ذلك النظر في واقع البلاد والعباد نصحًا للأمة، واستثماراً لجهد أبنائها، وتحقيقًا للمصالح العامة، ودفعًا للشرور والمفاسد العامة.

وإذا كانت مشروعية جهاد مَنْ امتنع عن التزام الأحكام الواجبة والعمل بها مما اتفقت عليه كلمة السلف والأئمة؛ فإن استيفاء شرعية هذا العمل هو أول ضابط ينضبط به، فلا بد من استيفاء حكم الجواز من الشرع، وعدم الإضرار بالأمة، وحصر الصراع مع أعدائها لا غير، وحسن ترتيب الأولويات في ذلك،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، (٤ / ٢١٢)، وأحمد، رقم (٥١١٥)، وعلق البخاري طرفاً منه، وإسناده صحيح.

مع وضوح الراية المجاهدة وسلامتها من ولاءات جاهلية، وشعارات عِمِّيَّة، وقبل ذلك وبعده أن تتحقق المصلحة بإعزاز الدين، والدفع عن المستضعفين، وكف بأس الكافرين.

وتترجح مصلحة المواجهة بأمور متعددة؛ منها: توقع الظفر بتحصيل أسبابه، وتوقع القبول من الأمة، وسلامة التوقيت زمانًا ومكانًا، والقدرة على توظيف الحدث في خدمة الإسلام، مع بذل الجهد واستفراغ الوسع في اتخاذ الأسباب المادية، وحساب النتائج في حدود البشر وقدرتهم، وهذا مسلَّم إلى أهل الحل والعقد من الأمة، مع التوكل على الله - تعالى - من قبل ومن بعد.

وإذا أصبح الجهاد في سبيل الله بصورته الشرعية المطلوبة ليس في مقدور الأمة في وقت من الأوقات؛ فإن الموقف الصحيح هو المضي في السعي للوصول إليه وتحقيقه، وتربية الأمة والناشئة عليه وتأصيله، لا إلغاؤه من قاموس الدعوة بالكلية، وإسقاطه من منهج الإصلاح بالجملة. فإن وقع تخلف عن القيام به فإنما يكون بقدر العجز عنه، مع ضرورة الأخذ بلوازم الوصول إليه، والإعداد له، لقوله ﷺ: «مَنْ مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «.. كما يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز؛ فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[(٢)].

وتحسن الاستفادة من مراحل تشريع الجهاد التي مر بها المسلمون الأوائل، ومن أحكام السياسة الشرعية التي يتحدد بناءً على رعايتها للمصلحة تفاوت الموقف من المشركين هدنة أو حربًا، فقد صالح النبي ﷺ قريشًا عشرًا وأخّر قتالهم، وقاتل غيرهم حيث لا هدنة، وترك قتال آخرين بغير هدنة، وفي كل

---

(١) أخرجه مسلم، رقم (١٩١٠)، وأبو داود، رقم (٢٥٠٢)، والنسائي، رقم (٣٠٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) مجموع الفتاوى، رقم (٢٨ / ٢٥٩).

ذلك النظر لمصلحة المسلمين وحسن التقدير لقدرتهم.

وأخيرًا؛ فإن ما سبق لا يمنع من تأكيد الحذر من استعجال مواجهة، أو استجابة لاستفزاز، أو الانطلاق من ردود أفعال قبل تهيئة مختلف الأسباب والقوىٰ، وتحقيق الكفاية في العدة، وعلىٰ رأسها استقامة الجنود والقادة بحسب الطاقة، وتحققهم بالإيمان، وثقتهم بنصر الله حتىٰ يستحقوا تنزل النصر عليهم، مع الحذر من سوء التقدير لقوة العدو، أو الاغترار بكثرة العدد، ومراعاة أن النفوس يتغير ثباتها في حال المواجهة الفعلية والاضطرار؛ عما قد يظهر منها حال السعة والأمن والاختيار، فهذا من آكد ما تنبغي العناية به في هذا الشأن، وذلك حتىٰ لا ترجع هذه المواجهات بنقيض ما شُرع الجهاد لتحقيقه من إعزاز الدين وتقوية شوكة المسلمين.

وإذا كانت المعارك بين أولياء الله وأعدائه سجالاً؛ لحكمة بالغة دلَّ عليها قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ﴾ [**محمد**: ٤]، فإن الجولة الختاميــة والدولة النهائية لحزب الله المؤمنين، ولجند الله الغالبين، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [**الصافات**: ١٧١ - ١٧٣].

وآخرًا؛ فإن هذا الوعد المنشود والنصر الموعود إنما يتنزل علىٰ أمة مؤمنة مجاهدة، تربي أطفالها علىٰ ما تربىٰ عليه معاذ بن عمرو بن الجموح[(١)]، وتربي شبابها علىٰ ما تربىٰ عليه محمد بن القاسم الثقفي رحمه الله[(٢)]، وتربي نساءها علىٰ ما تربت عليه الخنساء رضي الله عنها[(٣)].

وهي تربية إيمانية عبادية: فمَنْ خان حي علىٰ الصلاة؛ يوشك أن يخون حي

(١) هو قاتل أبي جهل يوم بدر، وكان غلامًا يومها.

(٢) هو فاتح بلاد السند، وكان ابن سبع عشرة سنة.

(٣) هي تماضر بنت عمرو، احتسبت بنيها الأربعة يوم القادسية.

علىٰ الجهاد .

وهي تربية إيمانية سلوكية : فمَنْ سقط أمام المعاصي وفي الموبقات ؛ جدير أن يسقط أمام الأعداء وفي المواجهات .

وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [**محمد** : ٧] ، وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [**الحج** : ٤٠] .

الأصل التاسع
الشـــــمول والتـكامـل

إن الدعوة إلىٰ الإسلام يجب أن تكون شاملة لقضاياه كافة، والبلاغ به يجب أن يكون للناس عامة.

والشمول في الدعوة إلىٰ الله مستمد من شمولية تشريعات الإسلام لأنظمة الحياة الإنسانية جميعًا، ومن أمره ـ تعالىٰ ـ بالدخول في ذلك كافة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، كما أنها تُستمد من شمولية العبادة لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣]، وهي كذلك مستمدة من كون كتاب الله ـ تعالىٰ ـ وسنة نبيه ﷺ: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، يحتاج إليه من الأمر والنهي، والحلال والحرام، والحدود والأحكام، فلم تبق في الدين قاعدة يُحتاج إليها في الضروريات والحاجيات والتكميليات إلا وقد بُينت غاية البيان.

فالإسلام «دين شامل، يشتمل علىٰ مصالح العباد في المعاش والمعاد، ويشتمل علىٰ كل ما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم. . .

* فهو عبادة وقيادة، يكون عابدًا، ويكون قائدًا للجيش.

* عبادة وحكم، يكون مصليًا صائمًا، ويكون حاكمًا بشرع الله، منفذًا لأحكامه.

* عبادة وجهاد، يدعو إلىٰ الله، ويجاهد في سبيل الله مَنْ خرج عن دين الله.

* مصحف وسيف، يتأمل القرآن ويتدبره، وينفذ أحكامه بالقوة، ولو بالسيف إذا دعت الحاجة.

* سياسة واجتماع، فهو يدعو إلىٰ الأخلاق الفاضلة، والأخوّة الإيمانية، والجمع بين المسلمين والتأليف بينهم»[١].

وأما تعليل وجوب كون الدعوة شاملة، وكون البلاغ عامًّا؛ فلأن الله ـ تعالىٰ ـ خاطب الداعية الأول ﷺ فقال ـ سبحانه ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة: ٦٧]، فقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾: يشمل جميع ما أوحي إليه من الكتاب والسنة بلا نقصان، والوحي يتناول مناحي الحياة كافة، والدعوة وسيلة تقرير الدين في واقع الناس.

علىٰ أن قضايا الدعوة ومسائلها تتجزأ؛ فلا يجب علىٰ كل داعية الدعوة إلىٰ كل القضايا ابتداءً؛ بل يجب الكل علىٰ مجموع الدعاة، وهو تحقيق معنىٰ التكامل.

فالمقصود بهذا الشمول والتكامل أن يجتمع في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ـ علىٰ تعدد تخصصات أربابها وتنوع اهتماماتهم ـ: الدعوة إلىٰ الإسلام بشرائعه وتنظيماته كافة، عقيدة وشريعة، ودينًا ودولة.

وبالضرورة؛ فإن هذا لا يمنع أن يبذل جميع الدعاة مساعيهم، كل بحسب طاقته، في جمع أطراف الإسلام عند الدعوة إليه، ولكن كما تقدم؛ فإن الدعوة تتجزأ وتتقسط، والأصل فيها أنها من فروض الكفايات، فما قصَّر فيه فرد قام به آخر، وما عجز عنه فريق نهض به فريق آخر، لكن المتعين علىٰ الأمة بمجموع دعاتها أفرادًا وجماعات أن يأخذ كل جزء من الإسلام حقه من الدعوة والبيان،

---

(١) مجموع فتاوىٰ ابن باز رحمه الله، (١ / ١٤٧).

فالأمة تتكامل في أداء فروض الكفايات ولا يأثم الكافة إلا بترخص الجميع، فيمارس كل فريق اختياراته واجتهاداته بفقه ورشد؛ مع استشعار أن الباقين يحملون ما عجز عنه ويكفونه مؤنته.

● **ومن الشمول في الدعوة: دعوة أمتَي الإجابة والدعوة.**

فيجب أن يتجه الخطاب إلى الجاهلين الغافلين، كما يتجه إلى العصاة المفرطين، وإلى المبتدعة المخالفين، كما يشمل الكفار الأصليين.

ومن الشمول دعوة طبقات الأمة جميعًا: الرجال والنساء، الشباب والأطفال، المثقفون والعامة.

● **ومن الشمول في الدعوة: الجمع بين واجبَي الاتباع والاجتماع.**

ويقصد به تحقيق الشمول العلمي والعملي؛ بحيث يتحقق الجمع بين فقه الاتباع وضرورة الاجتماع، فينبغي التزام الجماعة بمعناها العلمي، المتمثل في اتباع الكتاب والسنة على رسم منهاج النبوة، وبمعناها العضوي المتمثل في الدعوة إلى اجتماع طوائفها حول الأئمة الشرعيين، أو حول أهل الحل والعقد فيها عند خلو الزمان من الأئمة، واشتراك الكل في الدفع عن الإسلام وأهله، وحماية بيضته وإقامة دولته.

● **ومن الشمول في الدعوة: الشمول في الوسائل.**

ألا تقتصر الوسائل على دعوة جماعية عامة، ولا تنحصر في دعوة فردية خاصة، ولا تُختصر في مؤسسات خيرية، أو هيئات اجتماعية وإغاثية؛ بل كل وسيلة تحقق الأهداف ولا تعارض الشرع؛ فهي مطلوبة.

ومما يجدر التنبيه عليه أن شمولية الدعوة نظريًا لا يعني بالضرورة شمولية السعي والحركة عمليًا في كل اتجاه وعلى كل صعيد؛ إذ مردُّ ذلك إلى القدرة

والمصلحة، وهما يختلفان زمانًا ومكانًا وأحوالاً، أما الاعتقاد النظري فلا سلطان لأحد عليه، فيجب أن يكون شاملاً وجازمًا في جميع الأحوال.

فالشمول في الاستيعاب والفهم والعلم، والتكامل والتوازن والتدرج في العمل والممارسة ولا بد.

الأصل العاشر
الوحـــدة والائتـــلاف

الأصل اللاحب أن المسلمين أمة واحدة، تتكافأ دماؤهم، وهم يد على مَنْ سواهم، كما يسعى بذمتهم أدناهم، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وأساس وحدة الأمة: الإسلام، وتحكيم شريعته، على منهج أهل السنة والجماعة وأصولهم القويمة.

وعليه؛ فإن الدعوة إلى الله على منهج أهل السنة والجماعة؛ تعني أول ما تعني الاعتصام بالسنة والمحافظة على الجماعة؛ فإن «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب»[1]، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فتحقيق الوحدة والائتلاف ونبذ الفرقة والاختلاف، بين المسلمين عامة وطوائف العاملين خاصة، من أهم مقاصد الدين وقواعده الكلية، قال ـ تعالى ـ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المائدة: ٥٥].

وكما أن البدعة مقرونة بالفرقة؛ فإن السنة مقرونة بالجماعة، ولا شك أن أعظم سبب للاجتماع هو جمع الدين علمًا وعملاً، ونتيجته العز والتمكين في الدنيا، والنجاة من التفرق، والفوز والفلاح في الآخرة، والنجاة من النار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «جماع الدين: تأليف القلوب واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم (١٧٩٨١، ١٨٨٦٣)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وإسناده حسن.

الخارجين عنه هم أهل الفرقة»[١].

وليس المقصود بالوحدة والائتلاف ذوبان الطوائف في طائفة مخصوصة من الدعاة، ولا انحلال جماعات الدعوة لحساب جماعة بعينها من الجماعات، وإنما الاعتصام بأصول أهل السنة والجماعة عامة، والاجتماع على صحة المعتقد خاصة، والالتقاء على ما سبق من أصول الدعوة وتبنيها علميًّا وعمليًّا، والاجتماع على هذا الانتماء المبارك أنجح من الاجتماع على راية حزبية، أو دعوة إقليمية، وكل ذلك من شأنه أن يؤلف القلوب، ويوجه الجهود، ويجمع كلمة أهل الحل والعقد في الأمة، ويزول معه الانغلاق على الذات، وترقق به الحواجز الموهومة، وتُقطع به السبيل على قالة السوء ودعاة الفتنة، وتصحح النظرة إلى التعدد في ساحة العمل الإسلامي، والذي هو في مجمله تعدد تنوع وتخصص، ينبغي أن تنتفع به الأمة، فتحيا به الفرائض كافة، ويتجدد أمر الدين، وليس تعدد تعارض وتنازع، تشقى به الأمة، فتتفرق به الصفوف، وتتقطع به العلائق.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [**الحجرات**: ١٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا**﴾ [**آل عمران**: ١٠٣].

ومن نافلة القول أن الاشتراك والتعاون بين طوائف الدعاة وآحادهم في الأعمال العلمية النظرية، والبرامج الدعوية العملية؛ من شأنه أن يحقق الوحدة والتوافق والائتلاف، والذي لا بديل عنه إلا الفرقة والتنازع والاختلاف، ومن ثم الفشل والفناء.

ثم إن الخلاف حقيقة حتمية قدرية، وتضييقه بتجنب أسبابه، والخروج منه احتياطًا للدين غاية شرعية.

---

(١) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ٥١).

والموقف من المخالف يتفاوت بتنوع الخلاف:

ـ فصاحب خلاف التنوع محسن مثاب لإصابته الحق.

ـ وصاحب خلاف التضاد فيما كان من الظنيات خلافه سائغ، ولا إنكار عليه ولا تشنيع؛ بل التحاور والتناصح، والتماس المعاذير.

ـ وصاحب خلاف التضاد غير السائغ يُنكر عليه خلافه، بعد أن تزال عنه شبهاته، ويعامل بما يستحق أمثاله.

فالاجتماع علىٰ ما اتفق أهل السنة عليه، والتعاذر والتغافر فيما اختلفوا فيه، الفقهيات والعقديات في ذلك سواء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد اتفق الصحابة في مسائل تنازعوا فيها علىٰ إقرار كل فريق للفريق الآخر علىٰ العمل باجتهادهم، كمسائل في العبادات والمناكح والمواريث والعطاء والسياسة وغير ذلك، . . . وتنازعوا في مسائل علمية اعتقادية، كسماع الميت صوت الحي، وتعذيب الميت ببكاء أهله، ورؤية النبي ﷺ ربّه قبل الموت، مع بقاء الجماعة والألفة، وهذه المسائل منها ما أحد القولين خطأ قطعًا، ومنها ما المصيب في نفس الأمر واحد عند الجمهور أتباع السلف، والآخر مؤد لما وجب عليه بحسب قوة إدراكه»(١).

والعدل والإنصاف أهم آداب الخلاف:

قال ابن القيم: «والله يحب الإنصاف؛ بل هو أفضل حلية تحلىٰ بها الرجل، خصوصًا مَنْ نصب نفسه حكمًا بين الأقوال والمذاهب، وقد قال ـ تعالىٰ ـ لرسوله ﷺ: ﴿**وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ**﴾ [الشورى: ١٥]»(٢).

ومن قوادح العدل والإنصاف ونواقض الوحدة والائتلاف: العصبية لشيخ

(١) مجموع الفتاوىٰ، (١٩/ ١٢٢، ١٢٣).
(٢) إعلام الموقعين، (٣/ ٩٤).

أو إمام، أو حزب أو رأي اجتهادي، أو مذهب فقهي.

ومن قوادح الاجتماع والألفة: تقديم مصلحة الجماعة الحزبية على مصلحة الأمة المحمدية، وهو ترجيح جانب الانتماء (الوسيلة) على جانب الانتماء (الغاية).

وأعجب من هذا وأنكى: تقديم مصالح الداعية الفرد على الطائفة والأمة معًا!

وعلى طوائف العاملين للإسلام وآحادهم، على تعدد مسالكهم العملية واختياراتهم العلمية، أن يحفظوا فيما بينهم الأخوّة والعصمة، وأن يحققوا الفائدة من هذا التعدد، فيحصل التخصص الذي يجوِّد الأداء، ويستوعب أكبر قدر من الأمة، وتجتنب معه الإبادة الجماعية، ويفتح المجال لأكثر من تجربة عملية تثري ساحة الدعوة إلى الله، وتشيع جوًّا من المنافسة المحمودة في الخيرات، مع اجتماع الكلمة في القضايا الكبرى والملمات، وتوحيد الصفوف في المواقف العملية والمهمات.

إن أمانة الدعوة إلى الله، ومسؤولية تعبيد الناس لربهم، مرورًا بتحكيم الشريعة، وإقامة دولة القرآن والسنة في هذا العصر؛ لتقتضي ـ حتمًا ـ التكامل والتراحم والتعاون بدلاً من التفرق والتباغض والتشاحن، قال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢].

وإن أمانة الدعوة إلى الإسلام لتستلزم الحض على الجماعة والوحدة والائتلاف، والنهي عن الفرقة والاختلاف، وفي مجالات الدعوة الفسيحة وآفاقها الرحبة من السعة والتنوع ما يستوعب كل اجتهاد، ويستثمر كل طاقة.

والأصل أن طوائف الدعاة وآحادهم المنضوين تحت راية السنة، على اختلاف مناهجهم ومسالكهم العلمية والعملية، بمثابة التخصصات الطبية المتنوعة المحتاج إليها جميعًا لا يغني تخصص عما سواه، ولا تتحقق عافية الأمة

بالاقتصار على واحد دون ما عداه .

ولا بأس أن يقول كل داعية لصاحبه إذا اختلفا عمليًّا كما قال الإمام مالك لصاحبه عبد الله العمري، بعد أن حثّه على الاقتصار على باب بعينه من أبواب الخير، فكتب إليه قائلاً: «إن الله قسّم الأعمال كما قسّم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد. فنشْر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»[1].

وقد يُفتح على الإنسان في العمل المفضول ما لم يفتح عليه في العمل الفاضل؛ فيكون فاضلاً في حقه عندئذ، قال شيخ الإسلام: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض؛ فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصّل لكل أحد»[2].

ومع قلة الإمكانيات، وكثرة الواجبات، وغلبة المنكرات، وتسلّط الأعداء، وسيادة المنافقين؛ يتعين التعاون والتقارب بين الدعاة أفرادًا وجماعات وهيئات.

وما أجمل أن يقول كل داعية لصاحبه إذا اختلفا علميًّا كما قال الإمام الشافعي ليونس الصدفي، وقد تناظرا في مسألة فلم يتفقا، فلما التقيا أخذ بيده وقال: «يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة!»[3].

وأخيرًا؛ فغير خافٍ على ذي عينين أن دعوى الوحدة والائتلاف نطق بها أفراد وجماعات، وانبرى لها آحاد وطوائف، تأصيلاً وتنظيراً، ولعله لا يخفى أيضًا أن جُلَّ هؤلاء - إلا ما رحم الله - تخالف أعمالهم أقوالهم في هذا الأمر، وممارساتهم نظرياتهم!

(١) سير أعلام النبلاء، (٨/ ١١٤).
(٢) مجموع الفتاوى، (١٠/ ٦٦٠)، (٢٤/ ٢٤٦).
(٣) سير أعلام النبلاء، (١٠/ ١٦).

ومن النصح الواجب أن يقال: إن كل داعية موقوف ومسؤول بين يدي الله ـ عز وجل ـ عن هذه الأمانة الشرعية، والوظيفة النبوية، ثم هو من بعد مسؤول أمام المؤمنين في هذا الجيل؛ بل وما يأتي من أجيال!

وهذا يدعو تارة أخرىٰ إلىٰ التأكيد علىٰ اعتماد أصل هذه الأصول، وهو الإخلاص لله تعالىٰ، والصدق في القول والعمل، وتحقيق الربانية، والتجرد لاختيار ما هو الأنفع للبلاد والعباد.

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥].

الأصل الحادي عشر
العـالميـــة

إن عـالمية الدعـوة في الإسـلام وإلىٰ الإسلام؛ مستمـدة في الأصل من عالمية هذا الدين عقيدة وشريعة، ومن عالمية كتابه، ومن عالمية بعثته ﷺ إلىٰ العالمين، ومن عالمية حاجة البشرية إليه.

فأما عالمية عقيدته الصافية؛ فلأنها عقيدة جميع الأنبياء والمرسلين علىٰ تنوع شرائعهم وتباين أزمانهم وأقوامهم، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [**الأنبياء**: ٢٥].

وأما عالمية شريعته المطهرة؛ فلأنها الشريعة المهيمنة الخاتمة التي نزلت من ربّ الناس وإله الناس إلىٰ الناس كافة، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [**سبأ**: ٢٨].

وأما عالمية كتابه الكريم؛ فلأنه آخر الكتب الإلـهية نزولاً، والناسخ لما سبقه منها، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [**المائدة**: ٤٨]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [**يوسف**: ١٠٤].

وأما عـالمية رسـوله ﷺ؛ فلقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [**الأنبياء**: ١٠٧]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [**الأعراف**: ١٥٨]، وقال ﷺ في بيان فضله علىٰ سائر الأنبياء: «... وأُرْسِلْتُ إلىٰ الخلق كافة»[1].

فكان حقًّا علىٰ كل داع أن يتأسىٰ بالداعية الأول ﷺ، حيث خرج بدعوته

(١) أخرجه مسلم، رقم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إلىٰ خارج حدود الجزيرة، وكاتب الملوك والقياصرة والأكاسرة يدعوهم بدعاية الإسلام، مصداقًا لقوله - تعالىٰ -: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

ولقد تجددت العالمية في دعوة الصحابة - رضي الله عنه - من بعد نبيهم ﷺ؛ حيث قام خطيبهم ربعي بن عامر - رضي الله عنه - ليعلن هذا المبدأ في الدعوة فقال: «ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام»(١).

ومما يؤكد معنىٰ العالمية - شرعًا -: إقامة آصرة الاجتماع علىٰ أصل التوحيد دون غيره من الأواصر، قال - تعالىٰ -: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومما يثبته في الواقع بشارة النبي ﷺ بدخول الناس في دين الله أفواجًا، وببلوغ دعوة الإسلام ما بلغ الليل والنهار، وبامتداد ملك أمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها؛ مما وقع بالفعل أو يُنتظر وقوعه.

فيجب علىٰ كل مسلم أن يحمل همَّ الدعوة إلىٰ هذا الحق، وأن ينطوي علىٰ الرغبة الصادقة في هداية كل الخلق، وألا يفرّق في بذل الخير بين أحد من الناس لاعتبارات عرقية أو إقليمية أو مذهبية.

ومما ينبغي تأكيده في هذا المقام بعد التنبيه إلىٰ أن الدعوة محلها الأرض كل الأرض، وأن المدعوين هم الناس كافة، وأن موضوعها دين الإسلام الخاتم الذي فيه سعادة البشر جميعًا؛ أن يعلم أن مما يثبت عالمية الدعوة إلىٰ الإسلام تلك السعة في شريعته، والتي تؤكد رفع الحرج ونفي الجناح، وجلب التيسير عند المشقة، وتغير الفتوىٰ بتغير معطياتها زمانًا ومكانًا، وهذا الذي علىٰ مثله يؤمن الناس بالإسلام، فتتحقق مصالحهم في العاجل والآجل، ليس فقط بحفظ

---

(١) انظر: تاريخ الطبري، (٢/ ٤٠١).

الضرورات، وإنما برعاية الحاجيات والتحسينيات أيضًا، مع تشريع الرخص المبيحة للمحرمات عند وجود المشقات البالغة أو الضرورات.

ومن أظهر ما يدلل على العالمية في الدعوة ويرشحها: عالمية الصراع بين الإسلام وملل الكفر قاطبة، وتحالف قوى الباطل على الإسلام وأهله مَنْ كانوا وحيث كانوا، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [**البقرة**: ١٢٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾ [**التوبة**: ٣٦].

ومن أسفٍ أن تفتقد كثير من الدعوات الصادقة في عملها اليوم سمة العالمية، في الوقت الذي ترتفع فيه رايات ومرجعيات دولية عالمية لليهود والنصارى من جهة، وللرافضة الباطنية من جهة أخرى.

● **ومن عالمية الدعوة: تجاوز حدود المكان.**

فإن الدعوة العالمية هي التي تتجاوز حدود المكان فلا تُستغرق داخل مكان لا تخرج عنه، ولا تغفل عن الاستفادة من أماكن أخرى، ولا تتقاعد عن نصرة قضايا المسلمين في مواطنها المختلفة، ذلك أن أهدافها عالمية، وهي متوزعة على العالم بحسب أوضاعه المختلفة.

● **ومن عالمية الدعوة: رعاية الثوابت والسعة في موارد الاجتهاد.**

والدعوة العالمية هي التي ترعى الثوابت والمحكمات في كل ميدان، وتتعامل مع قضايا الاجتهاد ومسائله بحسب معطياتها ومقدماتها، فلا تقف على رأي لا يتغير في هذا الباب أو ذاك، ولا تجمد على أسلوب أو وسيلة لا ترى سواها، كما لا تتبنى مذهبًا فقهيًّا ناسب مكان نشأة الدعوة، ثم ترفعه إلى منزلة المحكمات والقطعيات في كل مسائله وفروعه، فتخلط بين الموروث الفقهي والأصول العقدية، أو بين الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية.

● **ومن عالمية الدعوة: عالمية الوسائل.**

فتستفيد الدعوة من الوسائل والإمكانيات المتاحة في كل مكان؛ بما يحقق الأهداف ويُكثر المنجزات، فمكان للجهود العلمية، وآخر للإعلامية، وثالث للسياسية، ورابع للاقتصادية.. وهكذا.

● **ومن عالمية الدعوة: عالمية الروابط والمؤسسات.**

فينبغي السعي في إيجاد هيئات ومؤسسات مرجعية عالمية، تخدم قضايا الدعوة إلىٰ الإسلام، وتدعم المسلمين علميًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وإعلاميًّا، كما تعمل علىٰ توحيد كيانات أهل السنة والجماعة، والتقريب بينها، والتنسيق بين مواقفها، ونصرة قضاياها المشتركة، مع تأكيد أنه لا يمكن في الواقع أن تستقل طائفة، مهما عظمت إمكاناتها، بالتغيير الشامل، أو تنفرد بالإصلاح الكامل.

الأصل الثاني عشر
الواقعيــة

إن الواقعيـة قبل أن تكون أصلاً للدعوة ومنطلقاً للدعاة هي خصيصة من خصائص الإسلام في تشريعاته وأنظمته؛ بل وفي نظرته للإنسان، فنظرة الإسلام للإنسان تقوم على هذا المبدأ فلا إغراق في المثالية، ولا سقوط في المادية، ولا إنكار لحاجاته وغرائزه، ولا إفراط في المتع واللذائذ الشهوانية.

وعادة الإسلام أن يحدد مستوى أدنى لا ينزل الإنسان عنه، ويفتح له أفقًا أرحب يتنافس الناس فيه، يظهر هذا في الفرائض والنوافل على تنوعها وتعددها، كما يظهر فيما نهي عنه نهيًا جازمًا كالمحرمات، وما لم يكن كذلك كالمكروهات.

ومن واقعيته أيضاً: تشريع الرخص حال الاضطرار أو الاحتياج؛ ليتحقق التيسير ويندفع الحرج، وتشريع التوبة من الذنوب لأن ابن آدم خطاء، وتشريع الكفارات لبعض المخالفات والأخطاء التماساً للسلامة من تبعتها، وإشاعة للخير والبر والإحسان في الأمة.

وتظهر الواقعية في تشريعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراتبه، ومراحله، وأحواله؛ من حيث الوجوب والاستحباب والجواز والحرمة.

كما تلمح الواقعية أيضًا في اعتبار الزمان والمكان في التربية والتعليم، والأمر والنهي والفتوى؛ إذ كل ذلك قد يتغير في أسلوبه ووسيلته، وفي عرضه وطريقة تناوله؛ تقديمًا وتأخيرًا، وتصريحًا وتلميحًا، باختلاف الزمان والمكان.

والموقف العملي من أهل البدع والمخالفين يتفاوت باعتبار الواقع زمانًا ومكانًا، وباعتبار البدع غِلظًا وخفة، وباعتبار أهل الحق قوة وضعفًا.

● **ومن الواقعية في الدعوة: إدراك السنن الربانية في الدعوة والإصلاح.**

وتلمس تلك السنن في سير الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ودعواتهم، قال - سبحانه -: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٣٧]، وقال - جل وعلا -: ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [**فاطر**: ٤٣]، فلا غنى بالدعوة والدعاة عن إدراك أن العاقبة للمتقين، وأن الابتلاء سنة جارية للمؤمنين، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن التدافع بين الحق والباطل لا بد منه، وأن زوال الظلم وأهله بأجل وقدر محتوم.

● **ومن الواقعية في الدعوة: المرحلية.**

وفي الحق أن المرحلية سنة كونية اجتماعية، في الخلق والأمر والتغيير سواء بسواء، وأن الدعوة بعد عصور الأنبياء تنتصر بالسنن الجارية لا الخارقة؛ فينبغي أن تنضبط الدعوة في مسيرتها بمراحل لكل منها ما يميزها في أهدافها ومناشطها ووسائلها، من غير تعجل واعتساف في طيها، ولا تثاقل وتباطؤ في تجاوزها، وهذا من شأنه أن يحفظ المكتسبات الدعوية الحالية، ويكثر المنجزات المستقبلية، ويرسخ بنيان العمل الإسلامي بعامة.

● **ومن الواقعية في الدعوة: التسديد والمقاربة.**

ويبدو هذا المنطلق جليًّا عند استعراض مناهج الدعوة ووسائلها وأساليبها؛ بل وفي حكم الدعوة نفسه، فإن من واقعية وجوبها أنها تُقسط هذا الوجوب وتقسمه على أفراد الأمة كل بحسبه، فلا يقوم بهذا الدين على وجهه الأتم الأكمل إلا رسول الله ﷺ، ثم تقوم الأمة به بمجموعها من بعده.

ومَنْ قام بواجب بحسب وسعه كفى غيره هذا الواجب، وكفاه غيره واجبًا آخر.

وبهذه النظرة الواقعية للدعوة وحقيقتها، وللدعاة وإمكاناتهم والفروق الفردية بينهم؛ يتكون من عموم الأمة وفي مجموعها دعوة متكاملة.

ومظاهر الواقعية تنشأ عن كلية الشريعة الكبرىٰ في تحقيق المصالح وتكثيرها وتكميلها، ودفع المفاسد وتقليلها وتخفيفها.

وبمراعاة جانب الواقعية في أهداف الدعوة ووسائلها وأساليبها؛ تنضبط مسيرتها، وتنتظم المصالح في مسالكها، ويتحقق الرشد، وينتفي الاضطراب والتعثر في مراحلها.

وبإغفال هذا الأصل المهم وقعت الدعوة إلىٰ الله في مآزق مختلفة، وعلىٰ مستويات عدة، فعلىٰ سبيل المثال؛ قد يقال فيما يتعلق بأهداف الدعوة: إن هدف الدعوة هو إقامة حكم الله في الأرض وتغيير الواقع القائم. يقال ذلك من غير تفريق بين هدف بعيد وقريب، فتتجه الدعوة صوب هذا الهدف مباشرة باحثة عن وسائله، ومتمحورة حول مقدماته، ومتخلية عن أصول أخرىٰ ومنطلقات وأعمال مهمة، مختزلة مسألة التغيير في محو نظام بعينه، فتمر السنون فلا الهدف يتحقق ولا الواقع يتغير؛ بل ويلحق بعض الدعاة فتور؛ حيث عالج الهدف مراراً فكان نصيبه الإخفاق.

ومكمن الخلل أن الهدف لم تُراعَ الواقعية في رسمه ولا ظرفه؛ من حيث الزمان أو المكان، وكفاية العدة.. ونحو ذلك.

ولو قيل: إن هدف الدعوة تعبيد الناس لربهم جل وعلا، وهدايتهم إلىٰ الصراط المستقيم، وأن هذا الهدف الشامل لا يتم إلا عبر مراحل وأهداف قريبة، تستوجب انشغالاً بالعلم والتربية والأمر والنهي.. ونحو ذلك، وتنتهي بإعلان سيادة الشريعة وهيمنتها ـ لكان أولىٰ وأنفع.

ويلتحق بعدم الواقعية في الأهداف: ترك تحقيق الهدف المتيسر وإهماله في غمرة الاشتغال بالهدف المتعسر، فلا المتعسر تحقق ـ مع طول المحاولة ـ ولا المتيسر. والأصل الفقهي أن الميسور من التكاليف الشرعية لا يسقط بالمعسور منها.

● **ومن الواقعية في الدعوة: التجديد والتطوير.**

ومن الواقعية المطلوبة أيضًا التنويع والتجديد والتطوير في الوسائل

والأساليب الدعوية .

فعلىٰ صعيد وسائل الدعوة قد يصرّ بعض الدعاة علىٰ وسائل معينة لتحقيق أهداف ما لمجرد أنها جُرِّبت من قِبَل الرعيل الأول، أو في عهد المؤسس الأول، بغضِّ النظر عن كونها واقعية فعّالة الآن أم لا!

فتتحول الوسائل الاجتهادية إلىٰ أمور توقيفية لا تقبل تغييراً أو تعديلاً، من غير التفات إلىٰ عدم التكافؤ الظاهر بين ضخامة الواقع وضآلة الوسائل.

وبالضرورة؛ فإن هذا التغيير الذي يمليه الواقع واعتبار الواقعية لا بد أن ينضبط بالتزام واستيفاء الضوابط الشرعية.

● **ومن الواقعية في الدعوة: التدرج ومراعاة ممانعة النفس البشرية.**

فإنها يصعب عليها التحول وترك الإلف المعتاد وإن كانت تحب الله ورسوله، وما أحسن قوله ﷺ في الإنكار علىٰ مَنْ سبَّ مَنْ يؤتىٰ به في الخمر كثيراً، حيث قال له: «لا تلعنوه، فو الله! ما علمت إنه يحب الله ورسوله»[1].

وأخيراً.. **فإنه ليس من الواقعية في قليل ولا كثير:**

ـ الانحراف عن طريق الأنبياء ومنهجهم تحت ضغط الواقع ووطأته.

ـ التنازل عن الأهداف الشرعية أو اليأس من تحقيقها تحت مطارق الواقع.

ـ التراجع عن الاستقامة والربانية في الدعوة استجابة لمؤثرات الواقع.

ـ دنو الهمة والرضا عن واقع الأمة، وتبرير القعود بدعوىٰ فقه الواقع.

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [**محمد**: ٣٨].

وقال ـ جل من قائل ـ: ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [**يوسف**: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٦٧٨٠)، من حديث عمر رضي الله عنه. وجاء في رواية أخرىٰ عند أحمد، رقم (٧٩٢٩)، والبخاري، رقم (٦٧٨١)، وأبي داود، رقم (٤٤٧٧)، واللفظ له، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه ﷺ قال: «لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان».

الخـــاتمـــة

وبعد؛ فإن ما مضىٰ من أصول الدعوة وسماتها ـ علىٰ أهميته ـ لا يغني عن أصول أخرىٰ كالمرحلية والوسطية والتضحية . . وغير ذلك ، ولم يكن من القصد تتبع جميع أصول الدعوة ومنطلقاتها ، علىٰ أن مثل المرحلية والوسطية والتضحية مستصحبة في العلم والأمر بالمعروف والتربية . . ونحوها من الأصول .

ولعل الله ـ تعالىٰ ـ أن يهيئ استكمالاً لهذه المعالم ، وأن ييسر بشرح وتفصيل لهذه الأصول ، يجلِّي مسائلها ، ويظهر دلائلها .

هذا وقد أردت بما كتبت النصح ، فأسأل الله ـ تعالىٰ ـ أن يتقبله بقبول حسن ، فيكتب لي به أجراً ، ويصحح به فهماً ، ويقوِّم به عملاً ، ويسدد به خللاً ، وينشر به خيراً ، إنه جواد كريم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

اللهم ! يا مَنْ أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ووسع كل شيء رحمة وحكمة ؛ ألِّف بين قلوب المؤمنين ، ووحِّد صفوف المسلمين ، ووفِّق العلماء والدعاة المحتسبين المتبعين ، واسلك بنا سبيلهم ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم ! هذا جهد المقلين ، وبضاعة المقصرين المفرطين ، وأنت أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، هب نقصنا لفضلك ومزيدك ، وهب تقصيرنا لرحمتك وإحسانك ، فما كان من صواب فبتوفيقك ولك المنة ، وما كان من خلل أو زلل فمن جهلي وغفلاتي وشيطاني ، وعليّ التوبة وأستغفر الله منه ، وأنا عنه راجع في حياتي وبعد مماتي ، ورحم الله مَنْ أهدى إليَّ عيباً ، أو أسدى إليَّ نصحاً ، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود : ٨٨] .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

البريد الإلكتروني للمؤلف
mohamed_yousri@hotmail.com

فهرس الموضوعات